دراســـات 31

القراءات السياسية
لأحاديث الفتن والملاحم:
دراسة في منهج الفتوى

د. عبد الرحمن عبيد حسين

مفاد
مركز فاطمة الفهرية
للأبحاث والدراسات

منار الإسلام
MANAR AL ISLAM

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
يمنع طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب
كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيط أو إدخاله
على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية أو نشره
رقميا على الأنترنت إلا بموافقة الناشر خطيا.

الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي صاحبها ولا تعكس موقف المركز
كما يتحمل الكاتب وحده مسؤولية أي خرق لحقوق الملكية الفكرية للغير

كتاب: القراءات السياسية لأحاديث الفتن والملاحم: دراسة في منهج الفتوى
تأليف: د. عبد الرحمن حسين عبيد
الناشر: مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)
ردمـــك: 978-9920-576-20-8 : ISBN
الطبعة الأولى: 1443هـ / 2022م
التدقيق والإخراج الفني: www.islamanar.com

القراءات السياسية
لأحاديث الفتن والملاحم:
دراسة في منهج الفتوى

د. عبد الرحمن عبيد حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

خضع تأويل النصوص الدينية من القرآن والسنّة لمجموعة من الضوابط الدقيقة والأسس الراسخة التي أرساها علماء الإسلام على مر التاريخ وكانت محل إجماع أهل التفسير وشُرّاح السنن، وكانت تلك الضوابط والأسس بمثابة صمام الأمان الذي يضع حداً لمحاولات العابثين والمتلاعبين بالنصوص من خلال تأويلها بما يتناسب مع ميولهم السياسية أو عقائدهم الفاسدة.

ورغم كل ذلك لم يخل تاريخ من ظهور فتاوى ذات طابع سياسي مستلة في الأصل من تأويل تعسفي لبعض الأحاديث، فقد استخدمت الفرق السياسية المتحاربة منذ العصر الأموي الأحاديث النبوية المتعلقة ببعض الأحداث الغيبية والسابقة على قيام الساعة لخدمة أهدافها وكسب المزيد من الأنصار والطعن في شرعية الخصوم كالأحاديث التي دارت حول الفئة الباغية والمختار الثقفي والحجاج وغيرها، والتي كانت لها دلالات مباشرة أو غير مباشرة على ترجيح الكفة السياسية لصالح فرقة على أخرى، وكانت بعض هذه الأحاديث صحيحة لا شك فيها وبعضها الآخر ضعيفاً ولم يخل الأمر من أحاديث موضوعة جلية الوضع.

واليوم كثرت الفرق السياسية والجماعات المسلحة التي تدعي احتكار المعرفة والعلم وتضع شعارات براقة لخداع أتباعها وإغراء الشباب الذين لا علم لهم للانضمام إلى صفوفها لإنشاء خلافة إسلامية وهمية ودولة إسلامية لا تتمسك بالعروة الوثقى وحبل الله المتين ولا تقيم وزناً واحتراماً لعلماء الإسلام الأجلاء وتضرب بمؤلفاتهم الفقهية والتفسيرية عرض الحائط! وأصبحت الأبواب الخاصة بالفتن والملاحم وأشراط الساعة، والمصنفة في الصحاح والسنن وغيرها، مرجعاً مهماً للجماعات المسلحة التي تحارب بعضها بعضاً باسم الإسلام.

ومن المعلوم للباحثين أن كثيراً من أحاديث الفتن والملاحم يمكن تأويلها على صورة تتفق مع واقع بلدٍ وموقع طائفةٍ في أزمان مختلفة مثل الحديث الذي أخرجه البخاري «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة»، وهذه التأويلات تزيد القضية تعقيداً وتخلق بلبلة في صفوف الشباب الذين سرعان ما ينقادون بسهولة للتفسيرات الظاهرية،

وتتعلق أحلامهم وآمالهم بخلافة وخلفاء صنعتها الأوهام والمصالح السياسية. واليوم يمر الشرق الإسلامي وغربه بمحنة كبيرة لا تتعلق بالأشخاص والجماعات وطرقها في الدعوة والتبليغ والقيام بواجباتهما وإنما بات تعلقها بمنهج تأويل نصوص السنّة النبوية على وجه الخصوص لتتفق والأسس التي قامت عليها بعض التنظيمات، فبات كشف زيف تلك التأويلات واجباً وفضح أضاليلهم فرضاً كما دأب العلماء السابقون على ذلك كالغزالي الذي كشف شطحات البائنين عن جادة الصواب في كتابه (فضائح الباطنية)، ومثل الفخر الرازي في كتابه (أساس التقديس) الذي عرض فيه زيغ بعض الفرق الكلامية.

ويعنى هذا الكتاب ببيان ضوابط التأويل الوسطي في الفتوى ورصد منابع التطرف وعرض نماذج من التأويلات السياسية الفاسدة للأحاديث، ومن المسائل الحاسمة في الفتوى المنفلتة من الضوابط: إنكار الإجماع الذي هو الأصل الثالث في مصادر التشريع والفتوى، فالتنكر له يحل رقاب الفئات المتشددة من الإنصات لصوت العقل الجمعي وقرارات المجامع العلمية والفقهية ومراكز الإفتاء، ويمنحهم حرية واسعة في تشكيل عصابات صغيرة لها قادة يفتون ويأمرون وينهون فلا يحيد عن طاعتهم أحد من الأتباع، ويخيل إليهم أن صورة الطاعة والنظام المخيم على دوائرهم الصغيرة هي عين الحق والصواب، وأنهم الفئة القليلة الغالبة من الغرباء والشعث الذين إذا أقسموا على الله لأبر قسمهم!

وتتمة لإنكارهم الإجماع والعقل الجمعي للأمة أوَّلوا قضية المتشابه في القرآن الكريم، فكل متشابه قالوا فيه برأيهم وجب الأخذ به ويتحول هذا المتشابه إلى محكم في عقائدهم وتشريعاتهم، وتتقلص دائرة المتشابه عندهم كلما اقتربت من اجتهادات زعاماتهم الشبابية البراغماتية والمؤقتة، فظاهر النص هو ما ظهر لقائد من قوادهم مهما صغرت عصابته، والمحكم هو ما حكمت العصابة به أنه الحق دون سواه، وتعدد الولاءات عندهم آفة لا تفضي إلى المواجهة الدموية، وكلما تباعدت المسافات بين عصائبهم خفت حدة تكفيرهم لبعضهم البعض وكلما تقاربت ظهر لهم كفر الآخر ظهور المحكم.

كانت حقبة الاتحاد السوفييتي حقبة هيمنت فيها الآيديولوجية الأحادية، ومرحلة من مراحل الاضطهاد الديني ليس فقط للإسلام وإنما لجميع الأديان والمعتقدات الروحية، وبانهيار هذا الاتحاد سنة 1991 - بعد أكثر من سبعين سنة من الحكم بقضبة حديدية

متنكرة للتسامح واستيعاب الثقافات والتقاليد المتنوعة لجمهوريات الاتحاد – بدأت مرحلة جديدة نهضت فيها الأديان متعثرة تتناولها الأيادي الخارجية لفقدان المرجعيات الدينية سواء للإسلام أو المسيحية، وهذه المرحلة ليست أقل خطورة من مرحلة الاضطهاد الديني لأن السمة العامة لها كان القلق والاضطراب وتدخل أطراف خارجية مستفيدة من حالة الفراغ المرجعي وغياب المؤسسات الدينية بما تمثله من ثقل ثقافي وروحي.

وأدى هذا التدخل الخارجي إلى ظهور كيانات وتكتلات مذهبية غريبة إلى حدّ كبير عن الإطار الثقافي العام للجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السابق، ولم تشكل حينها خطراً يذكر لا من الناحة العقائدية ولا من الناحية السياسية، ولكن وبمرور الوقت بدأت هذه التكتلات بالتوسع والانتشار لانشغال المؤسسات الدينية حديثة التكوين بتطوير نفسها والارتقاء إلى حالة من الاستقرار وتكوين العلاقات السياسية وتهيئة الأجواء الدينية والعودة بها إلى الإطار التقليدي حيث ساد المذهبان الفقهيان الكبيران الحنفي والشافعي على العلاقات الدينية ودائرة الفتوى والنفوذ القضائي والتعليمي. ولم يكن تكوين تلك الجماعات العقدي يسهل اندماجها في المدرسة الفقهية التقليدية بل على العكس كانت مناوئة للفقهاء التقليديين داعية إلى فتح باب الاجتهاد والعودة السلفية إلى نصوص القرآن والسنّة، فدخل الفكر الديني في مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في حرب باردة بين المدرسة الكلاسيكية للأحناف والشافعية من جهة والمدرسة السلفية التي اتخذت لها مرجعيات خارجة عن البيئة الثقافية لبلاد القوقاز وآسيا الوسطى والتي لم يكن لها حضور تاريخي سابق، وهذه هي المرحلة الأولى من مراحل العلاقات بينهما واتسمت بالحذر واتخاذ الشعارات الخاصة لكل فئة وترسيم الحدود الدينية بينهما.

واستغلت تلك الجماعات ثغرات في الفكر التقليدي وبعض الممارسات الخاطئة لأتباع هذه المدرسة، وجعلت منها منفذاً تسيطر فيه على عقول الناشئة الذين كانت معارفهم الدينية متواضعة وكانت حماستهم الدينية عالية، وساهم تشدد رجال الفكر التقليدي وعدم مقدرتهم على استيعاب الأوضاع الجديدة وفشلهم في جذب جيل الشباب مجدداً إلى طرفهم في تكسر الحواجز الجليدية للحرب الباردة فبدأت المرحلة الثانية بين الطرفين وهي مرحلة التوتر والتخندق تحسباً لمواجهات في المستقبل القريب. ولم تطل هذه المرحلة طويلاً

حتى انتقل الطرفات إلى المرحلة الثالثة من مراحل التصعيد والمواجهة وإصدار الأحكام وفتاوى التكفير، وسنشرح هذه المراحل بتوسع في الفصل الثاني من هذا الكتب.

وعليه تم تقسيمه إلى: مقدمة وأربعة فصول: الفصل الأول: أسس التأويل المعتدل للفتوى. الفصل الثاني: عوامل التطرف والظروف المهيئة لإنتاج الفتاوى الخطيرة في المستويين النظري والتطبيقي. الفصل الثالث: تأويل أحاديث الفتن في القرون الأولى بين العصمة والظن. الفصل الرابع: شرح نماذج من التأويلات التعسفية لأحاديث صحيحة بغية تسييسها وتسويقها في ميدان التطرف.

كلمات مفتاحية: الفتاوى، التطرف، الملاحم، أحاديث، تسييس، التأويل، الخلافة.

الفصل الأول:
أسس التأويل المعتدل للفتوى

يشكل نظام الفتوى الواجهة الثقافية للمذاهب فضلاً عما يضفيه من جوانب القوة والحضور القضائي في المنازعات الاجتماعية، وهو نظام معقد يستند إلى المكتبة الفقهية للمذهبين الحنفي والشافعي في دول الاتحاد السوفييتي السابق، ولا يتصدر للفتوى إلا العلماء من أصحاب المؤلفات والحواشي والتعليقات ومن عداهم يركن إلى مؤلفاتهم، وكانت حاشية ابن عابدين (ردّ المحتار وهي حاشية على كتاب الدر المختار الذي هو شرح لكتاب تنوير الأبصار) مثلاً مصدراً مهماً للفتوى عند الأحناف بعد الكاساني وابن الهمام وكتاب مراقي الفلاح شرح لمتن نور الإيضاح، وأما السادة الشافعية فكانت شروحات وحواشي النووي والرافعي وابن حجر الهيثمي وجلال الدين المحلي وغيرهم أهم مصادر الفتوى، وكانت كتبهم وحواشيهم تدرس في الحلقات الفقهية للملالي والشيوخ في المساجد والمدارس الدينية.

وكانت إحدى مشاكل التيار السلفي في حربه مع المذاهب التقليدية غياب نظام متكامل ومستقر للفتوى عندهم، والأسوأ من ذلك تصدر الشبان منهم وبجرأة كبيرة على الإفتاء ورد فتاوى علماء المذاهب المعتبرين متعللين بظاهر الحديث، وشكل ضعف معارفهم بفن التأويل وعدم تمكنهم من علم أصول الفقه مطعناً في مقدرة هؤلاء الشبان على الفتوى! والأسوأ من هذا وذلك جهلهم بواقع المستفتي وظروف الواقعة التي يفتون فيها قال الإمام الشافعي: «المستفتي عليل، والمفتي طبيب، فإن لم يكن ماهراً بطبه وإلا قتله»[1]؛ وقد أشار الشيخ يوسف القرضاوي إلى هذه النقطة قائلاً إن الخطأ لا يكون بسبب عدم استحضار النص فحسب، ولكن الخطأ يقع بسبب سوء تأويل النص، وفهمه على غير وجهه، إتباعاً لشهوة، أو إرضاء لنزوة، أو حباً لدنيا، أو تقليداً أعمى للآخرين، والتأويل آفة قديمة منيت بها النصوص الدينية والكتب المقدسة وهو أحد الوجهين فيما وصف به القرآن أهل الكتاب من تحريف الكلم عن مواضعه[2].

والفتوى كما عرفها القرافي: إخبار عن الله تعالى في إلزام أو إباحة[3]. ويبدو أن المتأخرين اختاروا تعريفاً مختلفاً من قبيل: بيان الحكم الشرعي على غير وجه الإلزام، فجعلوا

(1) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي: **الفقيه والمتفقه**، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي – السعودية، ط 2، 1421هـ. ج2، ص186.

(2) القرضاوي: **الفتوى بين الانضباط والتسيب**، دار الصحوة- القاهرة، 1985م. ص68.

(3) القرافي: **الذخيرة**. 121/10.

العمل بالفتوى أو عدم العمل بها من باب المباحات، واستبدلوا كلمة (إخبار) بما تحمله من دلالات ترهيبية بكلمة بيان؛ والحق أن الإلزام صفة من صفات الفتوى تمنحها سلطاناً كما تحمل المفتي مسؤولية ثقيلة، ونزعها بالكلية يعتق المستفتي من تبعات الحكم ولوازمه.

ويرى الإمام النووي أنه يجب على المفتي أن يدرس جميع جوانب المسألة حتى تتضح لديه حقيقة صورتها، ولا يكون ذلك إلا إذا استوعب المفتي معرفة الواقع، لأنه إذا لم يتصرف بهذه الطريقة يلتبس عليه الظالم والمظلوم، ولا يميز بين المحق والمبطل، فيروج على المكر والخداع والاحتيال.[1] ولا يكفي للمفتي مجرد معرفة أحكام الشريعة التي يستنبطها من النصوص الشرعية، بل إنما يكون المفتي في حاجة ماسة إلى ما سماه ابن القيم مرحلة التنزيل أو المطابقة، فقال: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى إلا بنوعين من الفهم، أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه...، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر».[2] وأشار الإمام الشاطبي إلى أهمية الإفتاء قائلاً: «المفتي قائم في الأمة مقام النبي صلى الله عليه وسلم».[3] لأمور منها: أولها: النقل الشرعي، لحديث: «...إن العلماء ورثة الأنبياء...».[4] والثاني: أن المفتي نائب عن النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الأحكام. والثالث: أن المفتي شارع من وجه، لأن ما يبلّغه من الشريعة إما منقول عن صاحبها، وإما مستنبط من المنقول.[5]

وهذه النصوص تدل على أن الشريعة «تحمل في أصولها ما يدبر الأمر في الاعتقاد، وما يرسي قواعد العدل والمصلحة في التشريع، والعقل الإنساني الذي آمن بسماوية هذا القرآن، ما فتئ يبذل أقصى طاقة في استجلاء حقائق التنزيل ومقررات الوحي، ذلك أن القرآن

(1) النووي، أبو زكريا محيي الدين: **روضة الطالبين**، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي محمد عوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، 2000م.ج8، ص87.

(2) الجوزية، ابن قيم محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، الناشر: دار الكتب الحديثة – القاهرة، 1979م. ج1، ص94.

(3) الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي: **الموافقات**، الناشر: دار المعرفة – بيروت، د.ط، د.ت، ج4، ص244.

(4) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجه**، بَابُ فَضْلِ الْعُلَمَاءِ وَالْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي. ج 1، ص 81.

(5) مجد أحمد مكي: **فتاوى مصطفى الزرقا**، الناشر: دار القلم – دمشق، ط1، 1999م. ص37.

الكريم نفسه هو الذي فتح السبيل لحرية الفكر وحث على التدبر، ليتفهم هذه النصوص المقدسة، ويتعمق في معانيها، ويستشرف ما تستهدفه من مقاصد وغايات بإخلاص وتجرد».[1]

وقد وضع الأحناف مجموعة من الشروط للفتوى والمفتي يجب الأخذ بها: «وَيَجُوزُ لِلشَّابِّ الْفَتْوَى إذَا كَانَ حَافِظًا لِلرِّوَايَاتِ وَاقِفًا عَلَى الدِّرَايَاتِ مُحَافِظًا عَلَى الطَّاعَاتِ مُجَانِبًا لِلشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَالْعَالِمُ كَبِيرٌ وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا، وَالْجَاهِلُ صَغِيرٌ وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا...»[2]، «وَلاَ يَنْبَغِي الْإِفْتَاءُ إلَّا لِمَنْ عَرَفَ أَقَاوِيلَ الْعُلَمَاءِ، وَعَرَفَ مِنْ أَيْنَ قَالُوا فَإِنْ كَانَ فِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ لَا يَخْتَارُ قَوْلًا يُجِيبُ بِهِ حَتَّى يَعْرِفَ حُجَّتَهُ وَيَنْبَغِي السُّؤَالُ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ زَمَانِهِ فَإِنْ اخْتَلَفُوا تَحَرَّى»[3]، «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا ذُكِرَ فِي الْقَاضِي ذُكِرَ فِي الْمُفْتِي وَلاَ يُفْتِي إلاَّ الْمُجْتَهِدُ وَقَدْ اسْتَقَرَّ رَأْيُ الْأُصُولِيِّينَ عَلَى أَنَّ الْمُفْتِيَ هُوَ الْمُجْتَهِدُ...».[4] ثم ذكر المؤلف المعايير التي يجب توافرها في المفتي وقال: «أَنْ يَعْلَمَ الْكِتَابَ بِمَعَانِيهِ، وَالسُّنَّةَ بِطُرُقِهَا، وَالْمُرَادُ بِعِلْمِهِمَا عِلْمٌ بِهِ يَتَعَلَّقُ الْأَحْكَامُ مِنْهُمَا مِنْ الْعَامِّ، وَالْخَاصِّ، وَالْمُشْتَرَكِ، وَالْمُؤَوَّلِ، وَالنَّصِّ، وَالظَّاهِرِ، وَالنَّاسِخِ، وَالْمَنْسُوخِ، وَمَعْرِفَةِ الْإِجْمَاعِ، وَالْقِيَاسِ... أَنْ يَعْرِفَ مَظَانَّ أَحْكَامِهَا فِي أَبْوَابِهَا...وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ لُغَةً، وَإِعْرَابًا...وَيَدْخُلُ فِي السُّنَّةِ أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا لِأَنَّهُ قَدْ يَقِيسُ مَعَ وُجُودِ قَوْلِ الصَّحَابِيِّ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ عُرْفِ النَّاسِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ قَرِيحَةٍ...[5]

يضاف إلى ذلك ما ذكره القرافي حول ضرورة تدقيق المفتي في استفتاء المستفتي حيث قال: «ينبغي للمفتي أن لا يأخذ بظاهر لفظ المستفتي العامي حتى يتبين مقصوده، فإن العامي ربما عبر بالألفاظ الصريحة عن غير مدلول ذلك اللفظ، ومتى كان حال المستفتي لا

(1) الدريني، فتحي: **المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي**، الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع - دمشق، ط2، 1985م. ص3.

(2) ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد: **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، ط 2، د ت، ج 6، ص 393.

(3) المصدر السابق، ج 6، ص 394.

(4) داماد أفندي، شيخي زاده، عبد الرحمن بن محمد: **مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر**، الناشر: دار إحياء التراث العربي، د. ط. د. ت، ج 3، ص 154.

(5) المصدر السابق، ج 3، ص 155.

تصلح له تلك العبارة ولا ذلك المعنى، فذلك ريبة ينبغي للمفتي الكشف عن حقيقة الحال كيف هو».[1].

ومن الأمثلة التي نختارها على الوسطية في الفتوى - والمعتمدة في الأساس على التأويل العقلاني للنصوص بعيداً عن الأحكام المسبقة والتأويلات الدارجة في أدبيات الجماعات المتطرفة – تفسير حديث: حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَاصِمٌ وَهُوَ ابْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ، زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ، أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».[2] واعتماد فتوى معتدلة اعتماداً عليه؛ فقد دأبت الجماعة المتطرفة على تفسيره بأن من لم يبايع أمراءهم على الطاعة التامة والتضحية بالمال والنفس في سبيل دعوتهم فهو كافر! وهو من أخطر الفتاوى الحديثية في أدبيات الجماعات المتشددة.

والاعتدال في فتوى مبنية على هذا الحديث يبدأ من فهمنا لمعنى البيعة في ظل تطور الأنظمة السياسية الحديثة وفي السياقات التاريخية لبيعتي العقبة الأولى والثانية وبيعة الرضوان وغيرها، وتركزت جهود الشراح القدامى على هذا الحديث في شرح عبارة (ميتة جاهلية) وقال كثير منهم مثل ابن حجر والشوكاني والسيوطي: لا تعني مات على غير دين الإسلام بل مات عاصياً! وقال الإمام النووي أن الجاهلية في الحديث تعني: حالة من الفوضى وعدم وجود الإمام! أي فسرها بالجاهلية السياسية لا الجاهلية العقائدية![3] وهذا الشرح

(1) القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي: **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام**، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ط 2، 1416هـ. ج 1، ص 236.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي: **صحيح البخاري**، كِتَابُ الفِتَنِ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم سترون بعدي أموراً تنكرونها، الناشر: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ ج9. ص 47. وانظر: مسلم، أبو الحسن ابن الحجاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**. كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَاب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت. د.ت.ج3. ص 1478.

(3) النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت:. ط2. 1392هـ. ج12. ص 238.

من الإمام النووي انعكاس للحالة الاجتماعية والسياسية التي عاصرها فقد شهد انقسام العالم الإسلامي والصراع بينهم وهجوم التتار واندحارهم في معركة عين جالوت ثم حدوث حالة من الانقسام والخوف بعد مقتل قطز على يد الظاهر بيبرس، وقد كتب الإمام النووي رسالة إلى الظاهر بيبرس فيها وعظ وتذكير ودعوة إلى مخافة الله ووجوب إنصاف المظلومين وإعادة الحقوق إلى أصحابها ويبدو أن الظاهر بيبرس لم يسعد كثيراً بهذه الرسالة وهذا بيّن في رده الجاف على الإمام النووي!

فالإمام النووي تجاوز المعنى التقليدي الذي أفاده السابقون بأن الميتة الجاهلية تعني العصيان وأن الميتة هي ميتة العصاة وفي هذا تحميل للذنب على تارك البيعة أما النووي فقد أحال المسؤولية إلى حالة الفوضى السياسية وتقلب نظام الحكم وانعدام الأمن والاستقرار وخوف الناس من الحكومات والحكام وهذا كله يحول بينهم وبين تأدية واجب البيعة الذي يتحقق في ظل الأمان وانعدام الخوف والعدالة الاجتماعية وثبات النظام القضائي وقوة حضوره وجرأة الناس على التعبير عن تطلعاتهم السياسية!

وهو في هذه الفتوى المميزة يلزم المفتي بالربط بين الكليات والجزئيات، فكما وضح ابن تيمية: الكليات مصدر العلم والعدل، ومعرفة الجزئيات ضرورة لتجنب الكذب والجهل، وبدون ذلك يتولد فساد عظيم[1].

وهذا المعنى غائب تماماً عن أدبيات الجماعات السلفية، والتأويل الوحيد المتداول عندهم هو مبايعة الأعضاء لأميرهم على السمع والطاعة في كل الأحوال وعدم مخالفة الأوامر، ولا يهم تعدد الأمراء الداعين إلى الفكر نفسه ففي حالة التصادم بين أميرين يجب على أتباع كل أمير طاعته ومحاربة الأمير الآخر وأعوانه باعتبارهم مارقين من الدين مبيحين دماءهم وأموالهم! والخروج عن طاعة الأمير يعني الخروج من الدين وحكم الخارج حكم المرتد وعقوبته معروفة! وهذا التأويل مدمر وكارثي لأنه يلغي المدنيين غير المنظمين في جماعات من حساباتهم وهم الغالبية ولا يحفظ لهم حقاً ولا يحقن لهم دماً.

وتعمد الجماعات السلفية المتشددة إلى تهميش الإجماع الذي هو الأصل الثالث من أصول التشريع والفتوى في الإسلام، وحجتهم في ذلك أن الإجماع لا ينعقد إلا على نص من

(1) ابن تيمية: **منهاج السنة**. ج5. ص 83.

القرآن أو السنّة، ويزعمون أنهم يعودون إلى الأصلين ويعملون بهما فلا فائدة من الإجماع الذي أكثره ادعاءات تاريخية قديمة أو تجمهرات جاهلية حديثة بعيدة عن حكم الله ومنكرة للجهاد؟!! وإن كان ثمة إجماع فهو إجماع جماعتهم على حمل السلاح وقتال أهل الزيغ والضلال.

ويغفل هؤلاء أن قوة الإجماع تظهر في توحيد النظر إلى تأويل نص ظني الدلالة. فالقرآن الكريم كله قطعي الثبوت وليس كله قطعي الدلالة، كما أن أحاديث الآحاد كلها ظنية الثبوت وليس كلها قطعي الدلالة كذلك[1]، وقد يتعلق شيء من النصوص ظنية الدلالة بحكم اعتقادي أو تشريع ثابت وحينها لا مناص من الخضوع للإجماع للخروج من الخلافات التي قد تودي إلى تبني تأويلات باطنية فاسدة، مثلما أولت الفرق الباطنية قوله تعالى: (وخاتم النبيين)، فقالوا أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وليس خاتم الرسل فشرعوا القول بتواتر الرسالات، ولم يكن للأحاديث الحاسمة لختمه عليه الصلاة والسلام للنبوات والرسالات أي قيمة فهي أحاديث آحاد لا يقوم بها معتقد صحيح!!

ولا عجب أن الإمام الغزالي شدد على منكر الإجماع وعلى رأسهم النظام المعتزلي الذي ألف كتاباً بعنوان: «النكت في عدم حجية الإجماع» وزعم أن الإجماع «كل قول قامت حجته وإن كان قول واحد!»[2]، وأنكر على داود الظاهري وشيعته قولهم أنه «لا حجة في إجماعٍ من بعد الصحابة»[3]، فإن مذاهبهم تفكك عرى الجماعة أولًا وتدخل الشبهات في تأويل كلام الله، وما يورثونه من الفتن والبلابل يجر المجتمعات إلى هلاك ويبيح تأويل آيات

(1) يرى الغزالي رحمه الله أن مستند الإجماع في الأكثر نصوص متواترة وأمور معلومة ضرورة بقرائن الأحوال وضرب مثلًا على تصور وجوده بأن الصلوات خمس؛ فإذا كان المستند في الأكثر نصوصاً متواترة فالمعنى ما كان قطعي الثبوت لا الدلالة، فإن سلمنا بأن الأكثر قطعي الثبوت والدلالة فالأقل هو قطعي الثبوت ظني الدلالة من الكتاب وظني الثبوت والدلالة معاً من السنّة وهذا الأقل يشكل مصدراً من مصادر الانفلات الجماعي لفرق الغلاة قديماً وحديثاً. انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **المستصفى من علم الأصول**. تحقيق: محمد ثامر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط1. 2011م. ج1، ص 137. ونذكر هنا أن الإجماع ينعقد باتفاق الأكثرية وإن خالفهم الأقل وهذا مذهب ابن جرير الطبري، وإمام الحرمين الجويني وحجة الإسلام الغزالي والآمدي من الشافعية، والسرخسي وأبو بكر الرازي من الأحناف، وابن حمدان الحنبلي، وبعض المالكية، وابن عبد البر، واين المنذر.

(2) المصدر السابق. ج1، ص 425-426.

(3) المصدر السابق. ج1، ص 461-462.

القرآن الكريم تأويلات تشطح بعيداً عن المعنى المراد على يد من لا علم لهم بفن التفسير ولا يقيمون لأهل الفن وزناً ولا يعلون لهم قدراً.

الفصل الثاني:
عوامل التطرف والظروف المهيئة لإنتاج الفتاوى الخطيرة في المستويين النظري والتطبيقي

كانت الفترة التي أحكم فيها الشيوعيون قبضتهم على دول الاتحاد السوفييتي فترة استثنائية في التعامل مع الأديان بلا تمييز، ولا يذكر التاريخ فترة سطا فيه الإلحاد إلى الدرجة التي يسعى فيها لسحق ومحو الأديان الأخرى كما يذكر المؤرخون إلحاد المرحلة الشيوعية، وقد مرت أوروبا سابقاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بمرحلة سيادة الإلحاد، وعانت فيها الكنيسة الكاثوليكية معاناة مريرة من فصل الدين عن الدولة ومناهج التعليم والمؤسسات الاقتصادية إلا أن عنفوان الإلحاد لم يصل إلى حد استئصال المتدينين وسحق التدين وهو لم يكن في حسابات الملاحدة الغربيين الذين اعتقدوا أن ظاهرة التدين لا يمكن محوها من المجتمع والسعي إلى ذلك عبث ومضيعة للجهد والمال؛ إلا أن ملاحدة الاتحاد السوفييتي كانت لهم وجهة نظر مغايرة.

ولم يختلف تنظير كارل ماركس وفريدريك أنجلز للدين عن نظرائهم من فلاسفة الغرب وأتباع المدرسة الوضعية التي هيمنت على الدوائر الفكرية والعلمية والسياسية حينها، ونعتا الدين بأنه أفيون الشعوب وعامل مثبط للتقدم والتحضر، ولكن الاختلاف كان عميقاً في التطبيق في الاتحاد السوفييتي ومهولاً إلى الدرجة التي أرعبت التجربة الإلحادية في أوروبا نفسها! فقد اتبع الشيوعيون سياسة شاملة في محاربة الأديان على كافة الصعد ابتداء من المنزل، ومروراً بالمدارس والجامعات والمؤسسات والجمعيات ومراكز الكولخوز والسوفخوز وانتهاء بأعلى السلطات الإدارية السياسية.

وبدأ «اتحاد الملحدين المسلحين» في الاتحاد السوفيتي في وقت مبكر من عام 1923، ولكن «المنظمة الإلحادية» تشكلت بشكل رسمي إثر أول مؤتمر لأصدقاء ومراسلي جريدة «الملحد» الذي عقد في موسكو شهر أبريل 1925م. وأعلن المؤتمر عن تأسيس اتحاد الملحدين للنضال من أجل التغلب على بقايا آثار الدين واستئصالها من أذهان الناس العاملين. وكانت خلايا هذه المنظمة عديدة ولعبت دور مهماً في الربط بين «الاتحاد» والمجتمع، حيث قامت بتجنيد أعضاء جدد، وأجرت محادثات فردية، ومحاضرات، وأمسيات فنية، وأدبيات موزعة، ودوائر منظمة وزوايا الملحد، وما إلى ذلك.[1] وهذا يدل على أن النظام السوفيتي لم

(1) А.В.Проскурина: «Союз безбожников» на Псковщине: организация и деятельность в конце 1920-х – первой половине 1930-х гг». Научно-

يكن يحارب الإسلام فحسب بل جميع الأديان والمعتقدات التي كانت تمثل، في رأيهم، عرقلة أو حتى خطراً على التفكير السليم وتطور العقل الحر الإلحادي عند الإنسان العامل.

يقول كارليوف وكارليفا نقلاً عن مولوكوف إن انتصار الاشتراكية في جميع نواح الحياة أدى إلى هيمنة الرؤية العالمية الإلحادية في بلادنا. انشق معظم المسلمين عن الدين.... أصبح الإسلام في منطقة الفولغا وفي بعض الأماكن الأخرى باعتباره بقايا آثار الماضي فحسب... لقد هيئنا جميع الظروف للقيام بالعمل الإلحادي الناجح.[1] ويقول أحد الكتاب الغربيين عن الحقبة الستالينية والمعتقلات المرعبة التي اصطلح على تسميتها بـ (غولاغ): «ومن الواضح أن معتقلات غولاغ كانت ميداناً للموت والأوبئة والمجاعة والعذاب. لقد وجدت هذه المعتقلات في مجتمع ساد فيه الإرهاب بكل المقاييس».[2] وقد ضمت هذه المعتقلات في أروقتها المرعبة قرابة مليونين ونصف من الرجال والنساء.[3] وبإمكاننا أن نصف تلك التدابير الأيديولوجية والتشريعية والقانونية والتنظيمية والعملية التي كانت تنفذها الدولة السوفياتية والحزب الشيوعي ضد الدين، والكنيسة، وأصحاب الأديان الأخرى على مر السنين كالممارسات العدوانية، وكانت المناهضة للدين جزءاً من السياسات القمعية والتمييزية للدولة السوفياتية.[4]

ولما كان من المحال إلغاء الثقافة الدينية ومسح هيمنتها التاريخية بالإرهاب والكبت والتعذيب والقتل فإن الروح الدينية سرعان ما هبت من سباتها وسرت بدفء في أرجاء البلاد بمجرد إعلان سقوط الاتحاد السوفييتي في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر 1991،

практический, историко-краеведческий журнал «ПСКОВ» № 16 - 2002 г. Стр. 204. ISBN 5-87854-199-8.

(1) Л.А. Королева, А.А. Королев: «Ислам, государство, общество в СССР во второй половине 1960-х – первой половине 1980-хгг. (поматериаламСредн егоПоволжья)»: моногр. Пенза, 2014. ПГУАС, стр 12. ISBN 978-5-9282-1105-9

(2) The Gulag and Soviet society in western Siberia, 1929-1953. Wilson T. Bell. A thesis submitted in conformity with the requirements for the degree of Doctor of Philosophy Graduate Department of History University of Toronto. 2011. P. 304.

(3) Ibid, p. 313.

(4) Л. И. Сосковец: «Антирелигиозные практики советского государства: цели, структура, этапы, средства». Журнал «Известия Томского политехнического университета», № 9 (35) 2013, часть 2, стр 179. ISSN 1997-292X

وصارت كل من الديانة المسيحية والإسلامية تبحث لها عن مرجعيات في الخارج تعتمد عليها لإنشاء مؤسساتها وجمع أتباعها من جديد، فنشطت الإرساليات الدينية والتبشيرية في كل دول الاتحاد السوفييتي السابق، ودخلت البلاد في مرحلة من الفوضى الدينية والتنافس بين المذاهب والنحل لكسب الأشياع، وفشلت الكنيسة الكاثوليكية في توحيد المسيحيين تحت مظلة البابوية حيث أن مسيحيي روسيا قرروا العودة إلى أحضان المذهب الأرثوذوكسي وإنشاء المرجعية الخاصة بهم على غرار ما كان سائداً أيام القياصرة، وفي الوقت نفسه قرر مسلمو الاتحاد السوفييتي العودة إلى المذاهب التقليدية التي كانت سائدة قبل الحقبة الشيوعية، ورصوا صفوفهم في مواجهة التيار السلفي الذي حاول الهمينة على المؤسسة الدينية، فكانت العلاقة بين الطرفين علاقة يشوبها الحذر وانعدام الثقة؛ وشكل تصدير الثورة الإيرانية الشيعية إلى دول الاتحاد السوفييتي السابق – خاصة الدول المتاخمة لإيران – عبئاً إضافياً إلى الخارطة الدينية المكتظة بالمذاهب والملل والفرق المتنافسة!

شكّل الاحتلال البلشفي لأفغانستان منفذاً كبيراً تسللت من خلاله الأفكار السلفية الجهادية إلى دول الاتحاد السابق، فقد دعمت الولايات المتحدة الأمريكية حركة المجاهدين الأفغان بالأسلحة لتقليص حدود الإمبراطورية الشرقية والتغلغل إلى أراضيها إبان الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، وشجعت أمريكا حلفاءها الخليجيين على إمداد المجاهدين الأفغان بالمال والنظريات الجهادية التي تطورت كثيراً خلال فترة الجهاد الأفغاني وتبلورت في ظل أحاديث الفتن والملاحم المستمدة من كتب الحديث المعتمدة، واتسعت رقعة المجاهدين لتشمل وافدين من دول مختلفة آمنوا بالمنطلقات النظرية للجهاد السلفي، وأدى التنافس بين المدارس التقليدية والتيارات الجهادية السلفية إلى خلق أزمة هوية دينية، في منطقة القفقاس وفي الشيشان على وجه الخصوص، وباقي الجمهوريات الإسلامية عموماً، الأمر الذي جعل الأمن القومي من أولويات السياسة الداخلية لروسيا الفدرالية.

عاشت منطقة القفقاس تحدياً إيديولوجياً وثقافياً كبيراً أيام هيمنة الحزب الشيوعي على مقاليد السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم، وأدت تلك الهيمنة إلى خلق أجواء ثقافية جديدة فيها لم تكن متفلتة من ربقة الأخلاق كما لم تكن ملتزمة بضوابط الدين، واعتاد الناس عليها ردحاً من الزمن حتى صارت جزءاً من التقاليد وكان على رأس على هذه التقاليد الجديدة التبرج ونزع الحجاب مع الحفاظ التام على الآداب والفضائل ولاقت

إجماعاً من الجيل القديم والشباب وحتى من رجال الدين أنفسهم الذين وجدوا في معارضة هذا التقليد الجديد معركة خاسرة يحسن تجنبها.

ولما سقط الاتحاد السوفييتي وانتهت رقابة الحزب الشيوعي عاشت الجمهوريات القفقاسية حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية والثقافية، وكانت العادات والتقاليد وسيادة النزعة القبلية ضابطاً اجتماعياً وأمنياً ساهم إلى حد بعيد في تضييق الخناق على العصابات والبلطجية التي ظهرت بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وباتت تتحكم في مجتمع تائه يفتقر إلى القيادة، وفي هذه الفترة برزت القيادات الدينية التقليدية المتمثلة في الملالي والخطباء لتؤدي دورها الذي غُيّب لعقود، وقوبلت هذه العودة بترحاب شعبي وحتى على مستوى القيادة السياسية الجديدة التي رأت في عودة الدور التقليدي لعلماء الدين أهمية في تحقيق الأمن الاجتماعي.

وتزامن السقوط المدوي للاتحاد السوفييتي بإرسال بعثات تعليمية ودعوية إلى دول الاتحاد من قبل دول إسلامية مختلفة رأت أن من واجبها توعية الجيل الناشئ من القوميات المسلمة بأمور دينهم لقصور دور الأسرة في إتمام هذه المهمة التي تدمرت بشكل شبه كامل في الحقبة الشيوعية، وكانت أنغوشيا إحدى محطات هذه البعثات والإرساليات والدورات الدعوية، وتخرج من هذه البعثات جيل صاعد من الشباب الملتزم يحمل تفكيراً مختلفاً عن الذي تتبناه المؤسسة الدينية الكلاسيكية، وما لبث أن أصبح هؤلاء الشباب داعة وخطباء ومعلمين لا يتقاطع سبيلهم مع سبيل الملالي والمتصوفة.

وبعد حالة الفوضى والشقاق بدأت المرحلة الأولى من مراحل الصراع البارد بين المذاهب التقليدية والمدرسة السلفية الجهادية، وكانت سمتها العامة انشغال الطرفين ببناء الهيكل الداخلي وتطوير الشعارات الخارجية، ونشر الفروع المدرسية في شتى أنحاء البلاد على شكل مدارس ومساجد ومؤسسات وقفية وخيرية ودور نشر. ومن المعروف أن المذهب الحنفي هيمن على الطقوس الدينية والإفتاء والقضاء وسلك التعليم في المدارس والمساجد لقرون في معظم دول آسيا الوسطى والجمهوريات الإسلامية في روسيا الاتحادية (اليوم)، وانتشر المذهب الشافعي على نطاق أضيق في الشيشان وأنغوشيا وداغستان، وميدانياً لا يوجد فرق يذكر بين أتباع هذين المذهبين في نظرتهم للتيار السلفي والوهابي لانتشار الطرق

الصوفية بين صفوف أتباع المدرستين من ناحية، ولتقيد الأتباع بدقائق الفقه المذهبي وعدم تجاسرهم على مخالفة الفتاوى المعمول بها تاريخياً والتي أقرها العلماء التقليديون وصارت متداولة على نطاق واسع، من ناحية أخرى.

ومعروف كذلك مدى كراهية أتباع المدرسة السلفية للتقليد ودعوتهم المستمرة لفتح باب الاجتهاد وعدم التقيد بالمدارس الفقهية، لأن هذه الدعوة المفتوحة للاجتهاد تنتهي دائماً بالارتماء في أحضان علماء السلفية واتّباع مذاهبهم وفتاويهم! لتصدرهم للفتوى واستحضارهم الدائم للحديث بصفته المصدر الشرعي لفتاويهم وكأن علماء المدارس الفقهية يعادون الحديث وتصدر فتاويهم عن الهوى والقياس! وخضوع التيارات السلفية في مختلف أنحاء العالم لعلماء متشددين ورجوعهم إلى الكتيبات التي توزع مجاناً عليهم وبسخاء أمر لاحظه علماء المذاهب التقليدية، فكان ربطهم بين الدعوة للاجتهاد والخضوع لفقه شيوخ السلفية ربطاً حتمياً وتهمة حاضرة يتهممون بها كل من ينادي إلى فتح باب الاجتهاد وتجاوز الفقه التقليدي والتطاول على العلماء والأولياء والزعامات الدينية!

ومع هذه التطورات اندفع الطرفان إلى نفق مظلم من المواجهة واتخاذ الإجراءات المناسبة ضد كل من يخرج عن دائرتهم إلى دائرة الخصوم، وكانت العلاقات القبلية والعشائرية عاملاً مهماً في التشكيلات الجديدة، وعاملاً حاسماً في حالات كثيرة لردع كثير من الشبان من الالتحاق بالتيار السلفي الذي اتخذ المنح الدراسية السخية باباً من أبواب التنظيم والتوسع، وتعرضت هذه العلاقات نفسها لتصدعات سببها الشقاق بين جيلين ينتميان إلى حقبتين مختلفتين ويردان موردين متباعدين: جيل الشيوخ بما يحمله من تراث الاتحاد السوفيتي وتمسك فطري بالمدرسة التقليدية، وجيل الشباب الذي أطل على انفتاح خطير مشوب بالفوضى واكتمل بناؤه الآيديولوجي بعيداً عن كتب الفقه والمناهج التدريسية الكلاسيكية للمذهبين الحنفي والشافعي وارتبط روحياً وفكرياً بمرجعيات دينية بعيدة عن موطنه وثقافته!

وكانت المرحلة الثالثة أسوأ مراحل تطور العلاقة بين طرفي النزاع، فالتيار السلفي عرف بتسرعه في إصدار أحكام التكفير والخروج من الملة، ولكن المدرسة التقليدية ورجالات الصوفية فيها كانوا بعيدين إلى حد كبير عن قرارات (مؤسسية) تكفيرية، إلا أن حدة النزاع

بينهما وضعف التشكيلات القبلية في القضاء على مصادر إذكاء الحرب بينهما دفع بعض رجالات التصوف من الملالي إلى إصدار أحكام تكفير مشابهة للتي يصدرها التيار السلفي المتشدد، الأمر الذي شكل منعطفاً جديداً في الأدبيات الصوفية والملائية!

وتحول المسجد إلى ساحة نشطة لعرض الأفكار الجديدة ونشرها بين الشباب، وعلى الرغم من أن الشباب (السلفي) الجديد وجد صعوبة في اتخاذ المسجد مقراً لانطلاقته نظراً لسيطرة الملالي على المساجد وتلقيهم الدعم من القادة السياسيين إلا أنهم اخترقوا حاجز الممانعة وتمت لهم السيطرة على بعض المساجد رويداً رويداً وصارت تعرف بين الناس بمساجد السلفية، وبدأت معها حالة من الاستقطاب والانقسام في صفوف المصلين بين مؤيد للتيار التقليدي وآخر مؤيد للتيار السلفي.

ولم يكن المسجد قاعة لعقد القران وعقد المولد النبوي ولا حتى لغسل الميت وتكفينه ونادراً ما كانت تقام صلاة الجنازة فيه وعلى الغائب، فهذه المناسبات كانت تتم في البيوت وبرعاية الملالي من الطريقتين، إلا أن الدور الحقيقي للمسجد بدأ مع إلحاق المدارس والمعاهد الدينية به، فكانت حلقات التدريس تعقد في المسجد لتدريس الأجرومية وشرح المحلي وغيرها من الكتب التقليدية التي تواصل تدريسها لأجيال ولم تنقطع نسبياً إلا في مرحلة الهيمنة الشيوعية؛ فتحولت وظيفة المسجد من مجرد قاعة لأداء الصلوات الجماعية وخطب الجمعة إلى رواق علمي يكتظ بالطلبة خاصة في أيام العطل الأسبوعية فتدار الحلقات العلمية من قبل الأساتذة للطلبة المتقدمين، ومن قبل الطلبة الأقدمين لتدريس الطلبة الجدد، وحتى هذه المرحلة احتفظ المسجد بدور تقليدي لم يبلغ درجة التوظيف الإيديولوجي وممارسة الدعوة المنظمة.

ولكن، ومع انتشار الفكر السلفي وازدياد دعاته، بدأ التوظيف الإيديولوجي للمسجد، وانقسمت المساجد على أنفسها بين مسجد داعٍ للعقدية الأشعرية والمذهب الشافعي، ومن داعٍ إلى العقيدة السلفية والتحرر من ربقة المذاهب الفقهية جميعها.

Manar al islam
islamanar.com

الفصل الثالث:

تأويل أحاديث الفتن في القرون الأولى بين العصمة والظن

أولَّتْ بعض أحاديث الفتن تأويلات متضاربة في زمن الصحابة رضوان الله عليهم وهم أقرب الناس إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وظهرت أول ما ظهرت هذه التأويلات في حياته عليه الصلاة والسلام، وعظم أمرها بعد وفاته واتخذت منحى مختلفاً حينها فعندما كان الرسول بين ظهرانيهم كان الوحي مرجعية قاطعة وحجة دامغة، فإن اختلفوا رجعوا إليه فإن سكت عنهم سكتوا، أما بعد رحيله عليه الصلاة والسلام صار التأويل المتحرر من مرجعية الوحي مستنداً شرعياً لقضايا سياسية وعسكرية. وعلة الاختلاف أن أحاديث الفتن متعلقة بأمور غيبية لا يعلم حقيقة أمرها إلا الله سبحانه وتعالى، بيد أنها إن تركت إلى حين تنجلي معانيها عياناً لا لبس فيه وإن خلفت من الشقاق والتناحر فإنه أقل حجماً وأخف أثراً عن تأويله متلبساً بالظن واتخاذه تعلة للحرب وسفك الدماء، فشتان ما بين الأمرين من حيث المقدمات والنتائج.

وعرض اختلافات الصحابة يعيننا على تعقب مسار تأويل أحاديث الفتن تاريخياً، ويشكل خطوة صائبة لتمييز البشري عن المعصوم في حياة الصحابة الكرام وإدراكهم للنصوص الدينية، ويضع النقاط على الحروف فيما يخص إلحاق نخبة مخصوصة من الأحاديث بوقائع تاريخية تبدو في ظاهرها تجليات حتمية لمتون أحاديث الفتن، ويزيح الستار كذلك عن وضع أحاديث للفتن واكبت تلك الأحداث في مسعى سياسي لشرعنة الحروب وسفك الدماء.

ومن الأحاديث التي اختلف فيها فهم الصحابة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، حديث ابن الصائد أو ابن الصياد،[1] الذي كان يهودياً وقيل كان أنصارياً أسلم واسمه صافي،

(1) **البخاري**، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي: **صحيح البخاري**، كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط 1، 1422هـ.ج2، ص93. وكذلك البخاري في: كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابٌ: كَيْفَ يُعْرَضُ الإِسْلاَمُ عَلَى الصَّبِيِّ، ج4، ص70. وكذلك البخاري في: كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ اخْسَأْ، ج8، ص40. وكذلك البخاري في: كتاب القدر، بَابُ {يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ}، ج8، ص126. وانظر مسلم: **صحيح مسلم**، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ،.ج4، ص2244. وانظر الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك: **سنن الترمذي**، أَبْوَابُ الْفِتَنِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1998م. ج4، ص89. وانظر ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، كِتَابُ التَّارِيخِ، بَابُ إِخْبَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْحَوَادِثِ، ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ الدَّجَّالُ، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر:

فكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يرى فيه المسيح الدجال لشبه بينهما في العين الطافية وزمزمة تصدر عنه كهانة وسحراً، وروى البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حلف أنه الدجال وتبعه في ذلك جابر بن عبد الله:

عن محمد بن المنكدر، فيما رواه البخاري، قال: « رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَحْلِفُ بِاللَّهِ أَنَّ ابْنَ الصَّائِدِ الدَّجَّالُ. قُلْتُ: تَحْلِفُ بِاللَّهِ؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».[1]

وقد التبس أمره على الصحابة الكرام خاصة وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحسم القول فيه، وإنما نهى عمر عن قتله:

«حَدَّثَنَا عَبْدَانُ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ عَنْ يُونُسَ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ انْطَلَقَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلُمَ فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لابْنِ صَيَّادٍ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَرَفَضَهُ وَقَالَ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ فَقَالَ لَهُ مَاذَا تَرَى قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدُّخُّ فَقَالَ اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ

مؤسسة الرسالة – بيروت، ط 2، 1414هـ. ج15، ص187. وانظر ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط1، 1416هـ. ج5، ص535. وانظر البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي: **شرح السنة**، كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ الصَّيَّادِ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط2، 1403هـ ج15، ص70. وانظر البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني: **القضاء والقدر**، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: 153] مَعَ قَوْلِهِ: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [الإسراء: 48]، المحقق: محمد بن عبد الله آل عامر، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض، ط1، 1421هـ ج1، ص233.

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، كِتَابُ الاِعْتِصَامِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ مَنْ رَأَى تَرْكَ النَّكِيرِ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجَّةً، لاَ مِنْ غَيْرِ الرَّسُولِ، ج9، ص109.

قَدْرَكَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِه».[1]

وقد دفع هذا الدجال الأحمق عن نفسه تهمة أنه المسيح الدجال بحجج: أن الدجال كافر وهو مسلم، وأن الدجال لا ذرية له وهو قد أنجب، وأن الدجال لا يدخل مكة والمدينة وهو قد دخلهما فزاد أمره غموضاً حتى أن أبا سعيد الخدري كاد أن يعذره!!:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خَرَجْنَا حُجَّاجًا أَوْ عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلا فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ، قَالَ: وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي. فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ ؛ فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ. قَالَ: فَفَعَلَ. قَالَ: فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ - قدح كبير - فَقَالَ: اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ وَاللَّبَنُ حَارٌّ - مَا بِي إِلا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ أَوْ قَالَ آخُذَ عَنْ يَدِهِ - فَقَالَ: أَبَا سَعِيدٍ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلًا فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ ثُمَّ أَخْتَنِقَ مِمَّا يَقُولُ لِي النَّاسُ، يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَسْتَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَافِرٌ وَأَنَا مُسْلِمٌ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ عَقِيمٌ لا يُولَدُ لَهُ وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلا مَكَّةَ وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ

(1) **البخاري: صحيح البخاري**، كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ، ج2، ص93. وكذلك البخاري في: كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابٌ: كَيْفَ يُعْرَضُ الإِسْلاَمُ عَلَى الصَّبِيِّ، ج4، ص70. وكذلك البخاري في: كِتَابُ الأَدَبِ، بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ اخْسَأْ، ج8، ص40. وكذلك البخاري في: كتاب القدر، بَابُ {يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ}، ج8، ص126. وانظر مسلم: **صحيح مسلم**، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ، ج4، ص2244. وانظر الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك: **سنن الترمذي**، أَبْوَابُ الْفِتَنِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1998م. ج4، ص89. وانظر ابن حبان: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، كِتَابُ التَّارِيخِ، بَابُ إِخْبَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْحَوَادِثِ، ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ الدَّجَّالُ، ج15، ص187. وانظر ابن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ج5، ص535. وانظر البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي: **شرح السنة**، كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ الصَّيَّادِ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط2، 1403هـ. ج15، ص70.وانظر البيهقي: **القضاء والقدر**، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: 153] مَعَ قَوْلِهِ: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [الإسراء: 48]، ج1، ص233.

الْخُدْرِيُّ: حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَه، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ وَأَيْنَ هُوَ الآنَ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ».[1] وقال ابن صياد في رواية: «أَمَا وَاللَّه إِنِّي لَأَعْلَمُ الآنَ حَيْثُ هُوَ وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ. وَقِيلَ لَهُ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ»[2].

فالاختلاف في أمر ابن الصياد درس لكل من رأى نفسه أهلاً لتأويل أحاديث الفتن وزعم احتكار فهمها، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم ترك أمر ابن الصياد سراً من الأسرار حتى يتوقف الصحابة ومن تبعهم في كل أمر مثله، ولا يسارعوا إلى اتخاذ قرار قد يورث ندماً وحسرة، وأبرز النقاط التي يمكن استخلاصها من حديث ابن الصياد:

1. يجوز تأويل الأحاديث ولو كانت في مسألة غيبية.

2. لا يمكن حسم القول في تأويل دون آخر، فهي اجتهادات بشرية لها نصيب من الصحة وقد يعتريها الخطأ خاصة إذا لم يحسم الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً في تأويلها.

3. لا ينبغي اتخاذ أحكام وقرارات بناء على تأويل أحاديث الغيب وإلا لكان عمر الفاروق أول من قتل ابن الصياد، أو كان ابن عمر أو جابر من يعمد إلى هذا، ولكن توقف الصحابة في أمر ابن الصياد يعني أن الأقاويل في بيان حقيقة أمره لا ترتقي إلى درجة اليقين ومن ثم إصدار الأحكام. ولا يخفى على اللبيب أن الصحابة الذين هموا بقتل ابن الصياد لم تغب عنهم حقائق متعلقة بالدجال تم بيانها من النبي صلى الله عليه وسلم من قبيل مقتله على يد عيسى بن مريم، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه، في حادثة تاريخية معروفة، أسكت بعصبية الذين أعلنوا وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بل وهدد بقطع رقابهم وذلك من هول المصيبة وطغيان الحزن والجزع، وعمر آمن ببشرية الرسول وحفظ الآيات المتعلقة بموته كذلك بيد أن قسوة حضور الموت أبعدت لهنيهة حقيقة ملاقاته للأنبياء وهم أكرم خلق الله!! وابن الصياد، مع كونه دجالاً صغيراً إلى جانب المسيح الدجال، أثار الشكوك من حوله، وهيج غضب الصحابة عليه لقرب عهدهم بحديث الدجال، وثمة حديث في كتاب الإيمان

(1) مسلم: **صحيح مسلم**، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ،ج4، ص2242. وانظر ابن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مُسْنَدُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ج 17، ص 482. وانظر الترمذي: **سنن الترمذي**، أَبْوَابُ الْفِتَنِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ،ج4، ص87.

(2) **مسلم**: **صحيح مسلم**، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ، ج4، ص2242.

لابن منده يقول أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال فخفض فيه ورفع حتى ظننا أنه في طائفة النخل!!

وإذا كانت مسألة تأويل أحاديث الفتن بهذه الصورة مع الصحابة على جلالة قدرهم: الاجتهاد ثم التوقف، اتخاذ شبه قرار نظرياً وتعليق الأمر في تنفيذه عملياً، التحسب من الوقوع في الظن القاتل والتورع الشديد عن الوقوع في الظلم.... فكيف ينبغي بمن هم دونهم بمراحل في العلم والورع والحزم والتعقل؟ إن حديث ابن الصياد درس لكل الأجيال المتطلعة إلى قراءة صفحات غائمة من علم الغيب والإدلاء بدلو في بحر التأويل وعبرة لأولي الأبصار والبصائر.

الأحاديث التي تأولها بعض الصحابة الكرام في القيادات الشابة

من أعظم الابتلاءات التي يواجهها المسلمون في زمن الفتن والحروب ظهور قيادات فتية لا يعرفها أحد، ولم تتمرس لا بالعمل السياسي ولا بالعمل العسكري، وفجأة اعتلت سنام الإدارة العسكرية والدينية، فتفتي بفتاوى تدل على جهل واضح بأحكام الدين، وتعمد إلى تكفير مخالفيها، ومن ثم ترتكب الفظائع في حق مخالفيهم سواء أكانوا محاربين أو مدنيين، والقارئ للتاريخ الإسلامي يجد نماذج مرعبة من هذه القيادات في عصائب الخوارج من الأزارقة وغيرهم. جاء في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم: «هلاك أمتي على يد أغيلمة سفهاء».[1]

وربما احتجت القيادات الشابة بما ورد في السيرة النبوية المطهرة من أنه صلى الله عليه وسلم عيَّن زيد بن حارثة على جيش فيه كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وغيرهما من أجلاء الصحابة، ويغفلون عن نقطة مهمة وهي وجود الأجلاء من الصحابة من ذوي العقل الراجح والخبرة الطويلة، في حين أن التجمعات الجهادية يقودها الشباب وقوامها الشباب وهذه طامة كبرى حيث تنعدم القيادة الحكيمة والمعارضة الشجاعة من أهل الخبرة والحكمة.

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، كتاب الفتن. بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَاكُ أُمَّتِي عَلَى يَدَيْ أُغَيْلِمَةٍ سُفَهَاءَ»، ج6. ص 2589.

وكذلك يستدلون بما ورد في كتب التاريخ من أن الحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبد الملك بن مروان على العراقين أرسل الثقفي الشاب وهو دون العشرين من عمره على رأس جيش عظيم إلى الهند والسند، وهذه مغالطة ثانية إذ يعمي هؤلاء أبصارهم عن رؤية الحجاج وعبد الملك وهما رأس الدولة وأصحاب الأمر والنهي والثقفي جندي عندهما، كما يغفلون عن رؤية العدد الكبير من المستشارين الذين يتابعون حركة القائد العام للجيش ويرفعون التقارير تلو التقارير إلى القيادة السياسية في العاصمة.

روى البخاري: قال حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة عن سويد بن غفلة قال قال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأن أخرّ من السماء أحب إلي من أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة، سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فأينما لقيتوهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة).[1]

فقد تأول الإمام علي هذا الحديث بأن المقصود من حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام هم الخوارج، ولكننا نعلم علم البقين اليوم أن الخوارج لم يأتوا في آخر الزمان فكيف علم الإمام أنهم المعنيون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لا شك أن تضافر مجموعة من الأحاديث في وصف الخوارج صدق بعضها بعضاً واشترك بعضها في جزئية دون أخرى دفعت بالإمام علي إلى إدراج هذا الحديث في زمرة ما تحقق فيهم، ولم ير في عبارة (آخر الزمان) ما يستوجب الغرابة فقد عمت الفتنة وسالت الدماء بين المسلمين حينها حتى ظن

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، كتاب المناقب، بَابُ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلَامِ، ج4، ص200. كذلك البخاري في: كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابُ إِثْمِ مَنْ رَاءَى بِقِرَاءَةِ القُرْآنِ أَوْ تَأَكَّلَ بِهِ أَوْ فَخَرَ بِهِ، ج6، ص197.وانظر مسلم: **صحيح مسلم**، كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ التَّحْرِيضِ عَلَى قَتْلِ الْخَوَارِجِ، ج 2، ص 746. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليّ: **السنن الكبرى**، كِتَابُ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ، جِمَاعُ أَبْوَابِ الرُّعَاةِ، بَابُ الْخِلَافِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1424هـ ج8، ص324. وانظر ابن حنبل: **مسند أحمد**، مُسْنَدُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ج 3، ص 477. أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني: **سنن أبي داود**، كتاب السنة، بَابٌ فِي قِتَالِ الْخَوَارِجِ، المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ. ج7، ص145. وانظر ابن حبان: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تابع كتاب التاريخ، بَابُ إِخْبَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْحَوَادِثِ ذِكْرُ الْأَمْرِ بِقَتْلِ الْحَرُورِيَّةِ إِذَا خَرَجَتْ تُرِيدُ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ، ج15، ص136.

خيرة الناس أن آخر الزمان قد قدم! إلا أن الزمان قد استطال أمده ورأينا فتناً أحلك من تلك ودماء أعظم منها أريقت عبثاً حتى ظن بعض خيرة الناس أن الساعة قد أزفت! ولا يزال الناس ينتظرون قدوم الساعة كلما ادلهمت الخطوب وكثر الهرج والمرج فهل يصلح الحديث لكل زمن بحجة ظن خيار الناس أن آخر الزمان حل؟ الثابت أن الظن مهما استشرى لا يصير حجة قاطعة، وستأتي ساعة هذا الحديث عاجلاً أم آجلاً ليتبين لكل ذي عينين أن التأويلات السابقة جميعها كانت ظناً!

أما حكم الإمام علي على فرقة الخوارج فلم ينبن على هذا الحديث وحده، ولو لم يكن ثمة حديث في أمرهم لما خرج حكمه عن التدبير والسياسة، ونعني بالسياسة والتدبير الحفاظ على الدولة من الانهيار، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه حارب المرتدين لأنهم خرجوا عن القانون وشرعوا لأنفسهم دستوراً جديداً بعيداً عن العاصمة والخلافة عوداً إلى حياة البداوة والعشائرية حيث تستقل كل عشيرة بنفسها، ولم يقاتلهم الصديق من أجل التمر والشعير، وهكذا فعل علي بن أبي طالب في حرب الخوارج فهؤلاء كان عديدهم بعشرات الآلاف من الفرسان المسلحين والمدربين، وقد شقوا عصا الطاعة وظنوا أنهم أحرار في التجول حيثما شاؤوا بسيوفهم وتشكيل دولة داخل دولة! وكانت تلك سذاجة سياسية مفرطة من جانبهم دفعوا ثمنها باهظاً وهم يتعجبون كيف تجرأ الإمام علي على قتالهم وقتلهم وهم الصوامون القوامون! لم تكن تشكيلات الخوارج مدنية سلمية بل كانت عصياناً مسلحاً غير واع يهيم بلا هدف ولا دليل ويخضع لقادة لا عهد لهم بالسياسة وتدبير الدولة وأمن الخلافة فكان لزاماً على الخليفة محاربتهم وإعادتهم إلى رشدهم وقواعدهم العسكرية أو وضع السلاح والعودة إلى الحياة المدنية فلما لم يستجيبوا لكلا الخيارين المتاحين صارت المواجهة المسلحة حتماً لا محيد عنه لإرساء قواعد الدولة وحمايتها من الانهيار الكامل.

فلو لم يجد الإمام علي حديثاً واحداً صريحاً أو مؤولاً في شأن الخوارج لما ضره ما فعل بهم، والسيرة تثبت أن الإمام علي في خلافة أبي بكر لم يوافقه بداية في حرب المرتدين كونهم مسلمين منعوا الزكاة فقط حتى أدرك مع بقية المخالفين أن سياسة الدولة تقتضي الانصياع لقرارات صعبة ولكنها حاسمة، ولما كرر الخوارج أمراً مشابهاً في عهده كان نضوجه السياسي في عنفوانه وكذلك كان من معه من الصحابة، فلم يحتج الأمر إلى كثير تداول ونقاش، ولكن فرقة الخوارج استغربت من قراره الحاسم لسذاجة فيهم وقلة بصيرة بشؤون

الدولة وفوضى تنظيمية لازمتهم فترة طويلة على الرغم من بسالتهم وتفانيهم في النضال عن مبادئهم ومعتقداتهم! فنصير مجدداً إلى قاعدة أن التأويل جائز بيد أن الدلالة فيه ظنية لتعلقه بالغيب فلا يصح إقرار قرار به. ومن اللافت للنظر أنه كلما تم إسقاط هذا الحديث على فئة بعينها تبيح الدماء وتولي فتية سفهت أحلامهم يكاد الحديث أن يصدق عليها!! ويصدر الحكم عادة من بعض خيار الناس، فلا الخيرة في أصحاب الظن ولا الشبه بين الفئة المارقة بالمذكورين في الحديث يغير من واقع الأمر شيئاً أو من دلالة الحديث شيئاً، فآخر الزمان له دلالة واضحة في أحاديث الفتن وهو زمن الفتن والزلازل الكبرى التي يتلوها قيام الساعة.

وقد تميز الخوارج بجرأة لا حدود لها في تخطي نظام التأويل المحفوف بالحذر والتبرؤ من تبعاته الجائرة وتفويض المعاني الكاملة والحقة للخالق جل وعلا؛ فقد تصدى زعماؤهم لتأويل ظواهر الأحاديث الناهية عن قتل المسلم، ثم تأولوا لقتل المسلمين ونهب ممتلكاتهم، وكانت القاعدة التي انطلقوا منها قاعدة سياسية ابتدعوها بعد معركة صفيّن، واختزلت مقولتهم تلك تجربتهم الأولى في الولاء الكامل لخليفة منتخب ثم التمرد عليه، وجعلوها حكماً على الدعاوى المخالفة والفرق المناوئة وقاعدة معيارية تصك وجه الخصوم، ألا وهي قولهم «لا حكم إلا لله»، وعلى الرغم من قرآنية هذه المقولة إلا أن سياقاتها الخوارجية تخطت النص وأخضعته لرؤية سياسية براغماتية ترى في بتر رؤوس المتحاربين على السلطة السبيل الوحيد لإقامة دولة الحق والشورى فخاضوا حرباً ضد الخليفة الرابع وضد دولة بني أمية فيما بعد، وبعد أن سحبوا ثقتهم من الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير انتهى بهم الأمر إلى تنصيب أنفسهم نواباً عن الخليفة المنتظر حتى تتهيأ الظروف المناسبة لتنصيبه عن طريق الشورى، فهم بحق مؤسسو نظرية ولاية الفقيه أو نائب الإمام المنتظر! بيد أن الفرق بين الإمام والخليفة أن الأول معين وفق معتقد الشيعة بينما الخليفة تنتخبه صفوة المؤمنين كائناً من كان فلا عصمة ولا معصوم ولا ولاية لأهل البيت ولا لقريش ولا لغيرهم في دولة الخوارج الديمقراطية المزعومة!!

وتجرأت فرقة الخوارج على إنكار حكم الرجم بحجة أن القرآن لم ينص عليه ونص على ما هو دونه في الشدة وهو الجلد مائة جلدة لمرتكب الفاحشة في سورة النور (الزانية والزاني...)، ولم يلقوا بالاً إلى الأحاديث الصحيحة المثبتة لوقوع الرجم في زمن الرسول صلى

الله عليه وسلم بحجة أنها آحاد لم تأت في باب البيان والتفصيل، منكرين أن السنّة قد تستقل بالتشريع على ما ذهب إليه جمهور العلماء ومستندهم في ذلك عمل الصحابة ونظرهم وهم الصفوة في العلم والتقوى، وقد يكون هذا الجنوح ردة فعل غاضبة منهم على خصومهم الذين شرعوا في وجوههم جمهرة من الأحاديث تنص على زيغهم وضلالهم ومروقهم من الدين مروق السهم من الرمية وتدعوا إلى قتالهم والتخلص من شرهم، فبدأوا بالطعن في بعض الأحاديث لأنها تخالف العقل في نظرهم، ثم رموا خصومهم بالمروق والضلال والزيغ وأباحوا قتالهم وقتلهم وسلب أموالهم وسبي نسائهم وذراريهم في خطوة هائجة ومسعورة لاسترداد كرامتهم والانتقام من الإهانة الموجعة التي لحقت بهم على يد صحابي من أهل البيت وأحد العشرة المبشرين بالجنة!

يمكن تقسيم مراحل تطور التأويل عند الخوارج إلى ثلاث مراحل منبثقة في الأساس من التطور التاريخي للفرقة، وهي مرحلة التأسيس السياسي، ومرحلة الانتشار والهيمنة العسكرية على بلاد فارس وكرمان، وأخيراً مرحلة التنظير الفكري التي صاحبت تحولهم إلى عصائب مشتتة غابت فيها قياداتها الكارزماتية من المحاربين الشرسين فانكافأوا على أنفسهم وأعادوا اجترار مقولات أسلافهم في محاولات حثيثة لمواكبة المدارس الفقهية والكلامية والالتحاق بركب الشيعة الذين وقعوا في فراغ مذهبي سابق فاقتبسوا من المعتزلة علم الكلام والفلسفة ومصطلح الحديث وأصول الفقه من أهل السنّة فحذا الخوارج حذوهم وكان التراث الاعتزالي المهمش من قبل أهل السنّة صيداً ثميناً ونبعاً يغترفون منه علوم اللغة والتفسير والمنطق.[1]

وكانت المرحلة الثالثة خالية من كل تأثير خارجي لهذه الفرقة إلا أنها في الوقت نفسه حمتها من الانصهار في الدوائر الفكرية والفقهية الأقوى، وطورت حاضنة دفاعية لأتباعها منحتهم فرصة إنتاج أجيال متبلرة تتبع نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وعقدياً موحداً ومحاطاً بالسرية والكتمان، وخفت تحت وطأة البرنامج الجديد حدة الخوارج وفورة غضبهم واكتسبوا مقدرة كبيرة على المهادنة وتحمل شظف علاقات تعايش وجدوا أنفسهم مرغمين على قبولها على مضض وكراهية، ثم تفننوا في بناء علاقات مداهنة صقلتها التجارب التاريخية،

(1) قد يكون صحيحاً أن المعتزلة أخذوا من الخوارج تجاسرهم على الصحاح من الأحاديث، وتبنوا تبنياً نظرياً رفضهم لزعامة قريش وإمامة أهل البيت ولكنهم كانوا أكثر اتزاناً في النظر إلى تراث الخلفاء الراشدين.

وارتضوا بصمت حقيقة أن مذهبهم لم يعد قابلاً للانتشار وضرورة التقوقع في كانتونات لا تظهر لمناوئيها سوى المظاهر الخارجية للمذهب وتخفي ورائها أسرار التاريخ وهمومه وأحزانه وبطولاته وتمرداً قاسياً على كل ما يمس جوهر المذهب ويسعى إلى تحويره أو قلب مكوناته.

كان الخوارج في حقبة التأسيس والانتشار يفتقرون بكل بساطة لقواعد كلية شاملة مستخلصة من النص المعصوم تتفرع عنها كل اجتهاداتهم التفصيلية وتخضع في سلاسة ويسر لتلك القواعد الكلية، وعندما استحدثوا هذه الضوابط الكلية كانت شوكتهم قد مضت إلى لا رجعة، وتكيفوا مع واقع لا يمس ذاكرتهم التاريخية ولا يمت إلى أهازيجهم ونواحهم بصلة، ولم يكن اكتمال الفراغ التاريخي في أصولهم الفكرية سوى إعلام أخرس بنهايتهم السياسية ونفوذهم الأنف والمتمرد.

لا شك أن الخوارج كانوا عقبة كأداء في مسيرة الإمام علي بن أبي طالب بوصفهم محاربين أشداء لا تلين لهم عزيمة ولا تردعهم عن المضي في تأويلاتهم أدلة الخصم مهما قويت، لكن هيمنة التأويل الصاعق كان في نهاية المطاف حليف الإمام في المعركة (الحديثية بين الطرفين) وإن لم يرق ذاك التأويل إلى درجة اليقين؛ أما في الحرب الكبرى مع جيش معاوية بن أبي سفيان فقد أثبت دهاة الأمويين علو كعبهم في التأويل المرتجل، فمعاوية حين أعلمه ضباط جيشه بمقتل عمار بن ياسر على يدهم مذكرين بالحديث الذي سرى بين الجند سريان النار في الهشيم (تقتلك الفئة الباغية) تفتقت فطنته عن تأويل بارع أبعد شبح الهزيمة في ميدان التأويل بأن قال: قتله علي بأن ابتعثه إلى الحرب وهو الهرم الذي لا يكاد يثبت على حصانه!

فكانت تلك البداية الارتجالية اللامعة تمهيداً لتأويلات متعاقبة في الفضاء السياسي حين احتكم الطرفان إلى حكم الرجال، وبدا أن الحنكة كانت حليف الجيش الأموي وهو ما أغضب فئة الخوارج التي تبنت لاحقاً نهجاً أقرب إلى المداهنة في التأويل وإخضاع النصوص لرقابة سياسية صارمة تجد في المنفعة القريبة خلاصاً ونصراً في ميدان حاصرتهم فيه سيوف الخصوم على اختلاف مذاهبهم، وصاغوا سلسلة من القواعد التأويلية يهتدون بها في مسيرتهم المتعثرة.

التأويلات المجلجلة

لئن لم ترق أحاديث الخوارج إلى درجة اليقين فإن تأويلات عقبتها بفترة زمنية قصيرة عن كذاب ثقيف ومبيرها كادت أن تخرس الألسنة لشدة موافقتها لوقائع تلمسها المسلمون خلال الحرب الدموية التي دارت رحاها بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه أميراً للمؤمنين، وبرز في تلك الملاحم والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي المعروف بقسوته وجرأته على الدماء، وبرز في الوقت نفسه المختار الثقفي دعي أهل البيت الذي قتل على يد مصعب بن الزبير.

وكانت هذه الأحاديث التي وافقت في جزء كبير منها شخصيتي المختار والحجاج مغنماً للمستشرقين الذين عرضوها كدليل ساطع على وضع الأحاديث لأغراض سياسية صرفة، فآل الزبير في نظرهم هم من وضع هذا الحديث لكسب ثقة المؤمنين والطعن في شرعية حكم بني أمية ووالهم الحجاج الثقفي، وبالمقابل وضع الأمويون أحاديث عن فضل المسجد الأقصى وقدموه بديلاً عن الحرم المكي الواقع تحت سيطرة آل الزبير!

ابتسار جملة أو مقطع من بعض أحاديث الفتن والملاحم

عمد بعض الساسة وبطانة السلاطين والملوك إلى اقتطاع جزء حديثي عن تمامه وعن سياقاته الموضوعية ابتغاء نيل حظوة أو تجييش العوام وحشد الجيوش الشعبية في بعض الحملات العسكرية المثقلة بهزائم الماضي المريرة، ولعل أكثر التأويلات التاريخية لأحاديث الفتن إثارة للجدل حديث فتح القسطنطينية الذي لقي ترحاباً واسعاً في زمن السلطان العثماني العظيم محمد الفاتح، حيث تحول التأويل إلى هالة نورانية أحاطت بانتصاراته على الامبراطورية الرومانية البيزنطية وتتوج ذلك بالاستيلاء على درة عواصم الشرق، وقد ضرب مؤولو الحديث لصالح الفاتح بروايات كثيرة وتفاصيل أكثر عرض الحائط في نشوة الفرح التي غمرتهم وألهبت مشاعرهم، ومن هذه الروايات ما رواه ابن ماجه وفيها أن حملة فتح القسطنطينية تبدأ من الحجاز تليها مباشرة الملحمة الكبرى:

حَدَّثَنَا النُّفَيْلِيُّ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ، قَالَ: مَالَ مَكْحُولٌ وَابْنُ أَبِي زَكَرِيَّا، إِلَى خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ وَمِلْتُ مَعَهُمْ، فَحَدَّثَنَا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ،

عَنِ الهُدْنَةِ، قَالَ: قَالَ جُبَيْرٌ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى ذِي مِخْبَرٍ، رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَتَيْنَاهُ فَسَأَلَهُ جُبَيْرٌ عَنِ الهُدْنَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « سَتُصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا، فَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ، فَتُنْصَرُونَ، وَتَغْنَمُونَ، وَتَسْلَمُونَ، ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ، فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ [ص:110]، فَيَقُولُ: غَلَبَ الصَّلِيبُ، فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَدُقُّهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ، وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ ».[1]

ومرج ذي تلول وصف لسهل واسع عظيم تحيط به التلال، ويزعم البعض أنه سهل مجدو في فلسطين توافقاً مع النظريات المسيحية واليهودية حول الملحمة الكبرى، وقد يصدق هذا الوصف على سهل آخر تحيط به التلال كالغوطة وغيرها، وقديماً جرت معركة أربيلو بين جيش الكسندر المكدوني وجيش دارا الثالث على سهل أربيل وهو سهل يتسع للملايين من المحاربين ولكنه ليس مرجاً بل أرض صخرية. وأغرب الأحاديث عن فتح القسطنطينية ما جاء من وصف للشام وأنها تخلو من سكانها حتى لا يبقى فيها إلا قليل معدودون: حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ سَهْلٍ، ثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، ثنا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ، رَفَعَهُ مُعَاوِيَةُ مَرَّةً، وَلَمْ يَرْفَعْهُ أُخْرَى «إِنَّ اللهَ لَا يُعْجِزُ هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنْ نِصْفِ يَوْمٍ وَإِذَا رَأَيْتَ الشَّامَ مَائِدَةَ رَجُلٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تُفْتَحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ».[2].

وهذا الوصف لم يتحقق في زمن محمد الفاتح، فالشام كانت عامرة بسكانها، ومعظم الأحاديث الواردة في فتح القسطنطينية تشير بوضوح إلى أن هذا الفتح يتم في زمن

(1) أبو داود: **سنن أبي داود**، كتاب الملاحم، بَابُ مَا يُذْكَرُ مِنْ مَلاَحِمِ الرُّومِ، ج4، ص109. وانظر **ابن حنبل**: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ، حَدِيثُ ذِي مِخْبَرٍ الْحَبَشِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ ابْنُ أَخِي النَّجَاشِيِّ، وَيُقَالُ: ذِي مِخْمَرٍ، ج28، ص33. وانظر المروزي، أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي: **كتاب الفتن**، الْأَعْمَاقُ وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ المحقق: سمير أمين الزهيري، الناشر: مكتبة التوحيد – القاهرة، ط 1، 1412هـ. ج2، ص438. وانظر ابن ماجه: **سنن ابن ماجه**، كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ الْمَلَاحِمِ، ج2، ص1369. وانظر الطبراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي: **المعجم الكبير**، ذُو مَخْمَرٍ وَيُقَالُ مَخْبَرُ بْنُ أَخِي النَّجَاشِيِّ، المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط2،، ج4، ص 235.

(2) الطبراني: **المعجم الكبير**، بَابُ اللاَّمِ أَلِفٍ، جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ، ج22، ص214. وانظر المروزي: **كتاب الفتن**، باب غزة الهند، ج1، ص410. وانظر الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو: **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها**، بَابُ مَا جَاءَ فِي خَرَابِ الْبُلْدَانِ، المحقق: د. رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة – الرياض، ط1، 1416هـ. ج4، ص880.

المهدي والملحمة الكبرى مع جيوش المسيح الدجال، فالفتح والمهدي وظهور عيسى بن مريم أحداث متزامنة لا يفصل بينها أحقاب متطاولة وقرون تظهر فيها إمبراطوريات وتنهار أخرى! ولا أدل على هذا من حديث مسند الإمام أحمد: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ ثَوْبَانَ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُمْرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ، وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ» ثُمَّ ضَرَبَ عَلَى فَخِذِهِ أَوْ عَلَى مَنْكِبِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذَا لَحَقٌّ كَمَا أَنَّكَ قَاعِدٌ» وَكَانَ مَكْحُولٌ، يُحَدِّثُ بِهِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ يَخَامِرَ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِثْلَهُ.[1]

فهذا الحديث يشير إلى خراب يثرب وليس خلو الشام من ساكنيها وحسب!! ويبين فإن دلت أحاديث فتح القسطنطينية بمجموعها على شيء فإنما تدل على أن الغرب سيعيد السيطرة الكاملة على هذه المدينة وما جاورها، بحيث يغدو فتحها حلماً من الأحلام كما كان حلماً زمن الدولة الأموية والعباسية وحقبة طويلة من أحقاب السلطنة العثمانية، فليس بين الفتح وملحمة الدجال سوى فترة زمنية قصيرة، وتطاول تلك الفترة من سنة الفتح العثماني إلى اليوم والتي تخطت خمسة قرون يبعد السلطان محمد الفاتح عن فضيلة تحقق النبوءة على يديه وإن كان قائداً عظيماً لا يشق له غبار وأثبت عبقرية عسكرية في حصار القسطنطينية والاستيلاء عليها.

(1) ابن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تتمة مسند الأنصار، حَدِيثُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، ج36، ص352.

الفصل الرابع:
نماذج من التأويلات التعسفية لأحاديث صحيحة بغية تسييسها وتسويقها في ميدان التطرف

في هذا المبحث نعرض شيئاً من الأحاديث التي تم تداولها على نطاق واسع في أدبيات الجماعات المتطرفة والتي خضعت لعملية تأويل ممنهجة تخدم الأجندة السياسية والاعتبارات الحزبية والمصالح الخاصة لكل فريق، ومن هذه الأحاديث:

حديث مصلح القرن والانقلابات العسكرية

جاء في الحديث الصحيح: إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا.[1] وتعددت الأقوال حول مجددي كل قرن وتعدد المجددون في كل قرن، واكتفى

(1) حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْمَهْرِيُّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ شَرَاحِيلَ بْنِ يَزِيدَ الْمَعَافِرِيِّ، عَنْ أَبِي عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فِيمَا أَعْلَمُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا». قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «رَوَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شُرَيْحٍ الْإِسْكَنْدَرَانِيُّ، لَمْ يَجُزْ بِهِ شَرَاحِيلَ». وانظر **الطبراني**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي: **المعجم الأوسط**، بَابُ الْمِيمِ [ص:179] مَنِ اسْمُهُ: مُحَمَّدٌ، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد , عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة. ج6، ص323. وانظر أبو داود: **سنن أبي داود**، أول كتاب الملاحم، باب ما يُذكَرُ في قَرْنِ المِئَة، ج6، ص349. وجاء في تعليق المحققين (شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي) ما يلي:

«إسناده صحيح، وقد احتج بهذا الحديث أحمد بن حنبل، فقال: إن الله يُقيّض للناس في رأس كل مئة من يُعلّمهم السنن وينفي عن رسول الله - صلَّى الله عليه وسلم - الكذب. وقد ذكره الحافظ في «توالي التأسيس» ص 46 - 49 من طرق عن أحمد بن حنبل، ثم قال: وهذا يُشعر بأن الحديث كان مشهوراً في ذلك العصر، ففيه تقوية للسند المذكور، مع أنه قوي لثقة رجاله وصححه أيضاً ملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» 1/ 248 قلنا: أبو علقمة: هو الفارسي المصري سماه ابن عدي: مسلم بن بشار. وهو في كتاب «الرجال» لابن وهب كما في «الكامل» لابن عدي 1/ 123، ومن طريقه أخرجه الطبراني في «الأوسط» (6527)، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» 1/ 123، والحاكم 4/ 522، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (364)، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار» (422)، وفي «مناقب الشافعي» 1/ 53، والخطيب في «تاريخه» 2/ 61 - 62، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» 51/ 338، وفي «تبيين كذب المفتري» ص 51 و 51 - 52 والمزي في «تهذيب الكمال» في ترجمة شراحيل بن يزيد المعافري 12/ 412، وفي ترجمة محمَّد بن إدريس الشافعي، وابن حجر في «توالي التأسيس لمعالي محمَّد بن إدريس» ص 45 - 46. وقال الطبراني: تفرد به ابن وهب، وقال ابن عدي: هذا الحديث لا أعلم يرويه غير ابن وهب عن سعيد بن أبي أيوب. وقوله بإثر الحديث: رواه عبد الرحمن بن شُريح الإسكندراني لم يجز به شراحيلَ فسره المنذري في «مختصره» بقوله: يعني عضل الحديث. قلنا: يعني أسقط من إسناده أبا علقمة وأبا هريرة. غير أننا لم نجد هذه الطريق مسندة عند أحد». وانظر الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، حديث رقم 599، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1. جاء في تعليق الألباني ما يلي:

«أخرجه أبو داود (4291) وأبو عمرو الداني في « الفتن « (45 / 1) والحاكم (4 / 522) والبيهقي في « معرفة السنن والآثار « (ص 52) والخطيب في «التاريخ « (2 / 61) والهروي في « ذم الكلام « (ق 111 / 2) من طرق عن ابن وهب: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فذكره. قلت: وسكت عليه الحاكم والذهبي، وأما المناوي فنقل عنه أنه صححه، فلعله سقط ذلك من النسخة المطبوعة من « المستدرك

بعض العلماء بتعداد من عاش في قرن ما بغض النظر إن كان قد توفي في أوله أو أوسطه، وعموماً يميل كثير من العلماء إلى المجدد هو من توفي في السنوات الأولى من أي قرن مثل: أبي بكر الصديق 13هـ، عمر بن عبد العزيز 101هـ، الشافعي 204هـ، النسائي 303هـ، الباقلاني 402هـ، الحاكم النيسابوري 403هـ، أبو حامد الغزالي 505هـ، الرازي 606هـ، ابن دقيق العيد 702هـ، ابن خلدون 808هـ، جلال الدين السيوطي 911هـ، ومحمد بن عبد الوهاب 1206هـ على رأي محمد رشيد رضا.

قال ابن كثير[1] في كتابه النهاية في الفتن والملاحم: الظاهر -والله أعلم- أن هذا الحديث يعُمُّ جملة أهل العلم من كل طائفة، وكل صنف من أصناف العلماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء ونحاة ولغويين إلى غير ذلك من الأصناف، والله أعلم. ونحوه ما قاله ملا علي القاري «مرقاة المفاتيح» 1/ 246. وقوله: «يجدد لها دينها» قال ملا علي القاري: أي يبين السنة من البدعة، ويُكثِّر العلم ويُعزُّ أهله، ويقمع البدعة ويكسر أهلها. ثم قال القاري: المراد بمن يجدد، ليس شخصاً واحداً، بل المراد به جماعة، يجدد كل أحدٍ في بلد في فن أو فنون من العلوم الشرعية ما تيسر من الأمور التقريرية أو التحريرية ويكون سبباً لبقائه وعدم اندراسه وانقضائه إلى أن يأتي أمر الله. ولا شك أن هذا التجديد أمر إضافي، لأن العلم كل سنة في التنزل، كما أن الجهل كل عام في الترقي، وإنما يحصل ترقي علماء زماننا بسبب تنزل العلم في أواننا، وإلا فلا مناسبة بين المتقدمين والمتأخرين علماً وعملاً وحلما وفضلاً وتحقيقا وتدقيقاً لما يقتضي البعد عن زمنه عليه الصلاة والسلام كالبعد عن محل النور يوجب كثرة الظلمة وقلة الظهور.

وأقرب رأي إلى الصواب هو قول من قال أن المجدد من كان له دور كبير في قرن ما سواء في أوله أو أوسطه أو آخره فالعبرة بالتأثير لا بسنة الوفاة، وعلى هذا يكون مجدداً كل من: أحمد بن حنبل 241هـ، الإمام البخاري 256هـ، أبو الحسن الأشعري 324هـ، ابن حزم

«، والسند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم. ووقع عند الحاكم والهروي مكان « شراحيل «: «شرحبيل «ولا أراه محفوظا وقد أشار إلى ذلك الحافظ في ترجمة « شرحبيل بن شريك « من « التهذيب «. والله أعلم. ولا يعلل الحديث قول أبي داود عقبه: « رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل «. وذلك لأن سعيد بن أبي أيوب ثقة ثبت كما في « التقريب» وقد وصله وأسنده، فهي زيادة من ثقة يجب قبولها».

(1) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي: **النهاية في الفتن والملاحم**، المحقق: محمد أحمد عبد العزيز، الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان، د.ط، 1408هـ ج1، ص 39.

الأندلسي 456هـ، أبو المعالي الجويني 478هـ، صلاح الدين الأيوبي 589هـ، على رأي محمد رشيد رضا، العز بن عبد السلام 660هـ، الشاطبي 790هـ، سليمان القانوني 974هـ على رأي ابن العماد الحنبلي، محمد عبده 1323هـ على رأي العقاد ومحمد رشيد رضا، وبديع الزمان النورسي 1379هـ.

راج هذا الحديث بقوة بين أدعياء الحركات المهدوية وغيرهم من الثائرين، بل إن جلّهم أعلن مهديته في بداية القرن، فعبيد بن ميمون القداح مؤسس الدولة الفاطمية أو دولة العبيديين، أعلن مهديته في بداية القرن الخامس الهجري سنة 402هـ، والمهدي بن تومرت البربري أعلن مهديته في بداية القرن السادس الهجري سنة 514هـ، ثم قاد حملة عسكرية كبيرة ضد دولة المرابطين دبر خلالها حيلاً لتضليل العامة ومات قبل أن يستولي على مراكش ولكن أتباعه أسسوا دولة الموحدين فيما بعد على أنقاض دولة المرابطين، وأسهمت حركته في سقوط الأندلس فالمرابطون كانوا سنداً لمعاقل المسلمين هناك.[1]

وظهرت في السودان حركة مهدوية واسعة النطاق قادها محمد المهدي بن عبد الله بن فحل (1843-1885م)، وكانت موجهة ضد الحكم التركي-المصري وضد الحاكم البريطاني تشارلز غوردون، وقد نجح هذا الزعيم في آخر أيامه في قتل الحاكم البريطاني فاستمال تعاطف المفكرين الإسلاميين من أمثال الأفغاني ومحمد عبده، واكتسب شعبية كبيرة في السودان قبل مقتل غوردون لانتسابه إلى الدوحة النبوية كما زعم مشجرو الأنساب من عترته وحواريه، ووافق اسمه واسم أبيه اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم أبيه كذلك، وساعده على تحقيق تلك الشعبية دعاة نشطون وعلى رأسهم التعايشي وعلي ود حلو، فزعم المهدي أن البشائر الإلهية والرؤى واللقاءات بالنبي عليه الصلاة والسلام يقظة ومناماً دفعته إلى إعلان مهديته، وبمجرد قبول الناس لدعوته نهج الخوارج في تكفير مناوئيه وإباحة دمائهم وأموالهم ونسائهم وكانت تلك مغريات مادية جذبت الكثير من العاطلين والبائسين إلى صفوف جيشه.

واصطدمت طموحات المهدي السوداني بطموحات مهدي آخر هو محمد المهدي السنوسي، وسارع مهدي السودان إلى مراسلته والتودد إليه ودعوته إلى الانضمام إلى صفوف

(1) المقدم، محمد بن أحمد إسماعيل: **المهدي**، الناشر: دار ابن الجوزي – القاهرة، ط 10، 2008هـ. ص 262 وما بعدها.

أتباعه وخصص له كرسي الخليفة الثالث، وكان كرسي الخليفة أبي بكر الصديق من نصيب التعايشي، وكرسي عمر بن الخطاب من نصيب علي ود حلو، ولم يرق هذا الخطاب للمهدي السنوسي فأوجز في الرد وتواضع في مسكنة فأين هو من بلوغ مرتبة الخليفة العظيم عثمان بن عفان، ولكن ردة فعله العملية كانت حاسمة وواضحة ووضعت حداً لمدّ الحركة المهدوية السودانية في ظل قيادة عبد الله التعايشي.[1] وما يهمنا في دعوته أمران:

الأول: موافقة اسمه واسم أبيه لاسم الرسول عليه الصلاة والسلام واسم أبيه، وانتماؤه إلى الدوحة النبوية العامرة، وقد قام المهدي باستغلال هذه النقطة على أكمل وجه بفضل الدعاة من خلفائه والحواريين المقربين إليه، وبتأثير الخطابات الكثيرة التي وزعها أتباعه في المدن والقرى، فتأول أحاديث المهدي تأويلاً ظاهرياً مسايراً للمعتقدات الشعبية.

الثاني: كانت وفاته يوم الإثنين الموافق التاسع من رمضان سنة 1302هـ، فاجتمعت في هذه الوفاة بركات يوم الإثنين وشهر رمضان والأهم من ذلك موافقة الوفاة لبداية القرن الرابع عشر الهجري، وبهذا تأول أتباعه حديث مصلح القرن، فإن لم يكن المهدي المنتظر فهو المصلح المنتظر!

ومن بدع الآراء حول سنة التجديد وأخطرها في باب التأويل وتكييف الحديث لخدمة دعوة سياسية الزعم بأن المجدد هو من أعلن عن نفسه وبرنامجه الإصلاحي أو الانقلابي في بداية السنة الهجرية من أول القرن الهجري، وهو ما كان من أمر جهيمان العتيبي في مكة، فقد وجدت جماعة العتيبي في محمد بن عبد الله القحطاني الإمام المهدي المنتظر، وكان مبعث القحطاني وإعلان مهديته في الأول من محرم سنة 1400 هجرية الموافق العشرين من نوفمبر/تشرين الثاني 1979م. وشكل هذا التأويل منحى خطيراً في مسار تفسيرات التجديد والمجدد، فلم تكن العبرة عندهم بسنة الوفاة ولا بالتراكم العلمي والعملي لمجدد القرن بل باختيار البداية الموفقة والموافقة لأول يوم من أول سنة هجرية لقرن جديد لإعلان مشروع سياسي أو عسكري انقلابي، ويتم بذلك الجمع بين مجموعة أحاديث لتقوية الدعوى وجمع الأتباع!

(1) المقدم: **المهدي**: ص 375 وما بعدها.

وتسترت حركة العتيبي السياسية بغطاء القحطاني وكان هو القائد الحقيقي وصاحب المشروع الذي قام على أحاديث الفتن والملاحم وأحداث آخر الزمان، وإذا كان الخوارج قد نقضوا شرط القرشية في الإمامة ورجحوا مروياتها بأحاديث أخرى تدعو إلى الرضا عن الحاكم ولو كان عبداً رأسه كالزبيبة وغيرها، فإن جماعة جهيمان العتيبي في السبعينيات عادت مرة أخرى لتنبش أحاديث الأئمة من قريش، والتركيز على اسم المهدي واسم أبيه، وربما كانت منطلقات جهيمان العتيبي ثأرية في الأصل فوالده قاتل الملك عبد العزيز آل سعود في معركة السبلة 1929م وقتل فيها.

ولعل محمد رشيد رضا – حال تصنيفه لمحمد بن عبد الوهاب كأحد المجددين - انساق وراء نقده العميق للدولة العثمانية بعد زيارته للأستانة 1909-1910م، حيث تشكلت قناعاته السياسية عن ضرورة وحدة الدول العربية بعيداً عن دولة الخلافة المنهارة، فأسس جمعية الجامعة العربية، وساهم مع رفيق العظم في تأسيس حزب اللامركزية الإدارية العثمانية،[1] وأعلن الحرب على السلطان عبد الحميد وجواريه وغلمانه وخصيانه ونعتهم بالبغاة المعطلين للشريعة والقانون، بل ذكر زعم من قال أن أوروبا كلها لو اجتمعت لإلحاق الضرر بالإسلام والدولة كما أضر عبد الحميد لعجزت عن ذلك...![2] لعله كلما تعاظم نقده للدولة العثمانية زاد إعجابه بالحركات المناوئة لها، وعلى رأسها الثورة الوهابية فألف كتاباً عن الحركة الوهابية بعنوان (الوهابيون والحجاز)، ومهما يكن من أمر الحركة الوهابية فإنها تركت إرثاً كبيراً لا زلنا نتلمس آثاره إلى أيامنا هذه.

ومن الملفت للنظر في الحركة الوهابية، وبخلاف الحركات المهدوية في السودان وغيرها، أن محمد بن الوهاب لم تنسق نفسه وراء الطموحات الخرافية التي زينت ثورة المهدي السوداني على سبيل المثال فسولت له نفسه ادعاء المهدوية مندفعاً بأقاصيص الصوفية وخيالاتهم الجامحة، بل وكفّر كل من رفض بعثته المباركة، وملأ منشوراته بقصص الخضر الحي والملائكة والأنبياء والخلفاء الراشدين الذين كانوا يجتمعون ويباركون قراراته الحميدة، ويرشدونه إلى تكفير من يخالفه، فعبد الوهاب كان رجل علم يعتني بالحديث ويزعم أنه على مذهب ابن تيمية وأنه القائم على رأس النهضة الحنبلية الثالثة، فأعلن الحرب على

(1) أمين سعيد: **الثورة العربية الكبرى**، الناشر: مكتبة مدبولي، د.ط، د.ت. ص 19.

(2) رضا، محمد رشيد: **مجلة المنار**، رسائل الطعن في الوهابية، الناشر: القاهرة، ابريل 1923م. مجلد 24، ج 4، ص 318.

الصوفية وأتباع المذاهب الفقهية إلى درجة جعلته يقف مع المهدي السوداني على درجة واحدة في قراراته التكفيرية الرهيبة.

وكان أتباع المهدي السوداني على وعي كاف منعهم من الانحدار وراء قصص المهدي بعد أن تبين لكل ذي عينين أن زعيمهم مات مبكراً ولم يتمكن من أن يؤم عيسى ابن مريم وبقية المؤمنين الصالحين في الأرض في صلاة جامعة أخيرة قبيل مجيء الريح الباردة من أقاصي عدن لتنزع أرواحهم الطاهرة، ووجدوا أن العزف على وتر مصلح القرن أجدى وأنفع بيد أنهم لم يتبرأوا من تراث إمامهم بل وجعلوه دستوراً خالداً؛ أما حركة جهيمان العتيبي فمجرد اختيارهم لأول محرم من السنة الهجرية في غرة القرن الخامس عشر الهجري دل دلالة حاسمة على أن تسترهم وراء المهدي كان مجرد شعار يغطي طموحاتهم السياسية.

تعدد معاني المشرق والمغرب في أحاديث الفتن والملاحم

انشغلت الجماعات المسلحة بمسألة جغرافية صغيرة ولكنها ذات أهمية بالغة في ترسيم حدود جمهورية دعاة المهدوية، وتحديد نقاط البداية في الملاحم الكبرى السابقة لقيام الساعة، ومن هذه الأحاديث ما جاء في صحيح الإمام مسلم: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة». ففسر الإمام القرطبي صاحب التفسير الفقهي المعروف المغرب في الحديث بشمال إفريقيا، وكان الحديث حاضراً في مخيلة المجاهدين في دولة المرابطين التي أسسها يوسف بن تاشفين

وفسرها آخرون بأنها بلاد الشام التي تقع غرب نجد والحجاز، وزعم آخرون أنها تمتد من الشام إلى الشمال الإفريقي.

حديث مرج دابق

روى الإمام مسلم وغيره: حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ،

فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا، وَاللهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمِ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ».[1]

ودابق سهل قريب من الحدود التركية السورية، وقال الإمام النووي أن الأعماق ودابق موضعان بالشام بقرب حلب، ومقصده الشام هنا بلاد الشام لا مدينة دمشق كما يفهم العوام من الخلق اليوم، وموضع الأعماق يقع ضمن الأراضي التركية اليوم، أما دابق فتقع شمال حلب بالقرب من الحدود التركية، وقد تيمن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بفتح القسطنطينية بالانطلاق منه وقوفاً عند تأويلات بعض أهل الحديث فأرسل أخاه مسلمة، وخاب ظنه فقد كان اهتمامه بالطعام أعظم من اهتمامه بالفتوحات ودفن هناك مع آماله وأحلامه الطائشة!

وقد تمسك بهذا الحديث أبو مصعب الزرقاوي زعيم تنظيم القاعدة في العراق، وكان يزعم أنه القائد المنتظر الذي سيغلب الجيوش الأمريكية وحلفائها (الروم) في مرج دابق! وتابع البغدادي زعيم تنظيم الدولة الإسلامية مسيرة الزرقاوي في التوكيد على أهمية مرج دابق، فبعد الانتصار سينطلقون الانطلاقة الكبرى حيث يهزمون جيوش المسيح الدجال!

ولم يكن اختيار هذا السهل عبثياً، فقد كانت القوات الأمريكية متمركزة في العراق، وكانت قاعدتها في الأراضي التركية (أنجرليك) تشكل خط حماية وإمداد لقواتها المنتشرة هناك، ورأى البغدادي فيما بعد أنها الأرض المناسبة لتكون عاصمة خلافته المزعومة، وبعد انهزام التنظيم التجأ مقاتلو التنظيمات المسلحة من جبهة النصرة وغيرها إلى منطقة إدلب، وتحصنوا بها ظانين أن قداستها المنبثقة عن قداسة الحديث ستمنعهم كما أن قداسة مكة

(1) مسلم: **المسند الصحيح المختصر** بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابٌ فِي فَتْحِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَخُرُوجِ الدَّجَّالِ وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ج 4، ص 2221. وانظر الداني: **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها**، بَابُ مَا جَاءَ فِي خُرُوجِ الرُّومِ، ج6، ص1114.

منعت جيش أبرهة الحبشي من الاقتراب من الحرم المكي، فتوجه الآلاف من مقاتلي التنظيم مع أسرهم إلى تلك البقعة، وتوزعوا بين ثلاثة ملايين مدني منتظرين المعركة الكبرى.

ومثل ذلك الالتجاء إلى الأماكن المقدسة والاحتماء بها هرباً من الجيوش الجرارة الفاتكة حدثت في التاريخ مراراً فالهندوس في إحدى الحملات المروعة لمحمود الغزنوي تحصنوا بمعبد الإله سومنات فلم يجدهم نفعاً، وصارت الهزيمة مضاعفة بعد اقتحام جيوش الغزنوي للمعبد واقتلاع باب المعبد ونقله إلى غزنة، وهكذا فعلت الجيوش الصليبية باقتحامها بيت المقدس ونحر نحو سبعين ألفاً من المحتمين بأسوار أول الحرمين في مشهد دموي لا تعرف الرحمة إليه سبيلاً.

ولم يعتبر مقاتلو تنظيم الدولة وأسرهم بالدروس التاريخية، فقد كان إيمانهم راسخاً بمعركة سهل دابق الحاسمة على الرغم من أن كل الأحداث كانت تسير عكس عقارب ساعة القيامة التي صممها منظرو التنظيم والوقاتون الكبار ابتداءً بالزرقاوي ومروراً بالعدناني وانتهاء بالبغدادي، فتقلص مساحة خلافتهم في فترة زمنية قصيرة كان مؤشراً على فساد التأويلات التي بشر بها الوقاتون السذج، وكراهية التجمعات السنية لحكومتهم القاسية كان مؤشراً آخر على فشل تنظيمهم في تحقيق العدالة المصاحبة لقيام الخلافة الكونية التي نصت عليها الأحاديث الصحيحة بوضوح لا لبس فيه، بل أظهر الأمراء الصغراء عدم اكتراث واضح بموجة الكراهية التي قابلهم بها أبناء المناطق السنية، ناهيك عن الرعب والترقب الذي ساد مناطق الشيعة بفئاتها المختلفة تجاههم، ونفذوا أحكاماً ميدانية تميزت بالقسوة والتجبر ما أضعف ثقة المدنيين البسطاء بمبادئهم السامية ووعودهم البراقة، وسرعان ما انفرط عقد العصابات العشائرية الموالية لهم، وانقلبت في ليلة وضحاها إلى صفوف التحالف الذي تقوده أمريكا.

أحاديث الذبح وإباحة دم الخصم وإن كان مسلماً

حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ، دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ».[1]

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، كِتَابُ اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ، باب علامات النبوة في الإسلام دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، ج 4، ص 200.

ومن العلماء من ربطه بحقبة تاريخية معينة مثل ابن حجر العسقلاني الذي قال في شرح الحديث: ...كَذَا تَرْجَمَ بِلَفْظِ الْخَبَرِ وسَيَأْتِي شَرْحُهُ مُسْتَوْفًى فِي كِتَابِ الْفِتَنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَفِي الْمَتْنِ مِنَ الزِّيَادَةِ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَالْمُرَادُ بِالْفِئَتَيْنِ جَمَاعَةُ عَلِيٍّ وَجَمَاعَةُ مُعَاوِيَةَ وَالْمُرَادُ بِالدَّعْوَةِ الْإِسْلَامُ عَلَى الرَّاجِحِ وَقِيلَ الْمُرَادُ اعْتِقَادُ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ وَأَوْرَدَهُ هُنَا لِلْإِشَارَةِ إِلَى مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ كَمَا عِنْدَ الطَّبَرِيِّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ نَحْوُ حَدِيثِ الْبَابِ وَزَادَ فِي آخِرِهِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ مَرَقَتْ مَارِقَةٌ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ فَبِذَلِكَ تَظْهَرُ مُنَاسَبَتُهُ لِمَا قَبْلَهُ وَاللَّهُ أعلم[1]

وقال ابن حجر أيضاً:...حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ الْحَدِيثَ أَوْرَدَهُ مِنْ طَرِيقَيْنِ وَفِي الثَّانِيَةِ ذِكْرُ الدَّجَّالِينَ وَهُوَ حَدِيثٌ آخَرُ مُسْتَقِلٌّ مِنْ صَحِيفَةِ هَمَّامٍ وَقَدْ أَفْرَدَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ وَقَوْلُهُ فِئَتَانِ بِكَسْرِ الْفَاءِ بَعْدَهَا هَمْزَةٌ مَفْتُوحَةٌ تَثْنِيَةُ فِئَةٍ أَيْ جَمَاعَةٍ وَوَصَفَهُمَا فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى بِالْعِظَمِ أَيْ بِالْكَثْرَةِ وَالْمُرَادُ بِهِمَا مَنْ كَانَ مَعَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ لَمَّا تَحَارَبَا بِصِفِّينَ وَقَوْلُهُ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ أَيْ دِينُهُمَا وَاحِدٌ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَانَ يَتَسَمَّى بِالْإِسْلَامِ أَوِ الْمُرَادُ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَانَ يَدَّعِي أَنَّهُ الْمُحِقُّ وَذَلِكَ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ إِذْ ذَاكَ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْضَلَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَلِأَنَّ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بَايَعُوهُ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ وَتَخَلَّفَ عَنْ بَيْعَتِهِ مُعَاوِيَةُ فِي أَهْلِ الشَّامِ ثُمَّ خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَمَعَهُمَا عَائِشَةُ إِلَى الْعِرَاقِ فَدَعَوُا النَّاسَ إِلَى طَلَبِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ لِأَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمُ انْضَمُّوا إِلَى عَسْكَرِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ عَلِيٌّ إِلَيْهِمْ فَرَاسَلُوهُ فِي ذَلِكَ فَأَبَى أَنْ يَدْفَعَهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ دَعْوَى مِنْ وَلِيِّ الدَّمِ وَثُبُوتِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ بَاشَرَهُ بِنَفْسِهِ وَكَانَ بَيْنَهُمْ مَا سَيَأْتِي بَسْطُهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ورحل عَلِيّ بالعساكر طَالِبًا الشَّامَ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَتِهِ مُجِيبًا لَهُمْ عَنْ شُبَهِهِمْ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ بِمَا تَقَدَّمَ فَرَحَلَ مُعَاوِيَةُ بِأَهْلِ الشَّامِ فَالْتَقَوْا بِصِفِّينَ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَ الْأَمْرُ بِمُعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ عِنْدَ ظُهُورِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمْ إِلَى طَلَبِ التَّحْكِيمِ ثُمَّ رَجَعَ عَلِيٌّ إِلَى الْعِرَاقِ فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ الْحَرُورِيَّةُ فَقَتَلَهُمْ بِالنَّهْرَوَانِ وَمَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ وَخَرَجَ ابْنُهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بَعْدَهُ بِالْعَسَاكِرِ لِقِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ وَخَرَجَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَوَقَعَ بَيْنَهُمُ الصُّلْحُ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ الْآتِي فِي الْفِتَنِ إِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بِهِ

(1) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379هـ ج 12، ص 303.

بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَيَأْتِي بَسْطُ جَمِيعِ ذَلِكَ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَدِيثُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَذْكُورُ.[1]

وممن ذهب هذا المذهب «التاريخي» القسطلاني اتباعاً لابن حجر، قال: والمراد كما في الفتح علي ومن معه ومعاوية ومن معه لما تحاربا بصفين (دعواهما واحدة) لأن كلاً منهما يتسمى بالإسلام أو يدعي أنه محق وقد كان علي الإمام والأفضل يومئذ بالاتفاق، وقد بايعه أهل الحل والعقد بعد عثمان ومخالفه مخطئ معذور بالاجتهاد والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه بل له أجر وللمصيب أجران.[2]وكذلك السيوطي حيث قال عن المقصود بالفئتين: هما جماعة علي، وجماعة معاوية[3].

ويبدو أن ابن بطال ربطه بمستقبل أبعد من أيام حرب صفين والخوارج، فقال: هذا إخبار عن الغيب وحدوث الفتنة وقتال المسلمين بعضهم لبعض، ويحتمل أن يكون معنى قوله: (دعواهما واحدة): دينهما واحد، ويحتمل أن يكون دعواهما واحدة فى الحق عند أنفسهما واجتهادهما، ويقتل بعضهم بعضًا.[4]

وكان حقيقاً بالجماعات المتطرفة أن تفرح بتأويل ابن حجر والقسطلاني والسيوطي حتى تبرأ ساحتها من المراد بالفئتين فتقوم بربطه بمرحلة تاريخية غبرت وانتهت ولكنها أثرت حمل المعنى على واقعها هي بدعوى أن وقتهم هو وقت قيام الساعة وأن علاماتها ظهرت، فإذا حدثت مواجهة بين جماعة وأخرى سارعت كل واحدة منها إلى هذا الحديث لتقول أن دعواها هي الحقة وأن الأخرى على باطل وذلك بسوق أحاديث أخرى وآيات تتحدث عن الفئة الباغية وأن الحق لا يتعدد فتتخذ ذلك ذريعة إلى إباحة أموال ودماء الجماعة الأخرى

(1) العسقلاني: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج 6، ص 616.

(2) القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - مصر، ط7، 1323هـ ج 6، ص 56.

(3) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **التوشيح شرح الجامع الصحيح**، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، ط1، 1419هـ؟ ج 9، ص 4058.

(4) ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك: **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، كِتَاب اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ، باب قَوْلِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم): لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ، دار النشر: مكتبة الرشد -الرياض، ط2، 1423هـ ج 8، ص 593.

والقضاء عليها بشتى السبل باسم الجهاد والجماعة الغالبة في هذه الحال هي التي تستحق لقب الفئة الناصرة للحق والخاسرة عليها الانضمام إليها وطاعة أميرها الجديد!

وفي هذا السياق يصطدم أتباع الجماعات المتطرفة بحديث آخر أخرجه مسلم: حَدَّثَنِي أَبُو كَامِلٍ فُضَيْلُ بْنُ حُسَيْنٍ الْجَحْدَرِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، وَيُونُسَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: خَرَجْتُ وَأَنَا أُرِيدُ هَذَا الرَّجُلَ فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَحْنَفُ؟، قَالَ: قُلْتُ: أُرِيدُ نَصْرَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْنِي عَلِيًّا - قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا أَحْنَفُ ارْجِعْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قَالَ فَقُلْتُ: أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ».[1]

ومثله حديث آخر متفق عليه من حديث أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، يُحَدِّثُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، ثم فَقَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ[2].. وفي بعض الروايات: فكيف تفعل بلا إله إلا الله يوم القيامة.[3]

وقد أجمع العلماء على حرمة دم المسلم من هذا الحديث وغيره، وهنا يلجأ منظرو الفكر المتطرف إلى التأويل الفاسد والتنطع في الدين، فتارة يقولون إن هذا الأمر كان في أول الدعوة وأنه نسخ بغيره من الأحاديث مثل حديث: (لقد جئتكم بالذبح)،[4] وحديث بُعثت

(1) مسلم: **صحيح مسلم**، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، ج4. ص 2213.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**، كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابُ قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} [المائدة: 32]، ج94، ص 4

(3) مسلم: **صحيح مسلم**، كِتَابُ الإِيمَانَ، بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، ج1، ص97.

(4) حسنه الألباني في كتابه: **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه**، كتاب التاريخ، بَابُ كُتُبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **الناشر: داربا وزيرللنشر والتوزيع** – جدة، **ط1**، 1424هـ. ج9، ص287.

بالسيف بين يدي الساعة.[1] وأقوى حديث يستدلون به في هذا المقام ما رواه أبو داود: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ بَايَعَ إِمَامًا، فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ، فَاضْرِبُوا رَقَبَةَ الْآخَرِ»![2] وبهذا الحديث يستبيحون دماء منافسيهم من الجماعات الإسلامية متناسين أن البيعة تكون عامة لرئيس دولة لا لرئيس عصابة ليس من فضل من علم ولا خلق!

وتارة أخرى يلجأون إلى الحيلة والعزف على وتر المصلحة العامة وكأن مصلحتهم هم هي مصلحة كل المسلمين، فيقومون بدم بارد بقتل من كان صديقهم بالأمس القاتل يصيح الله أكبر والمقتول ينطق بالشهادتين، وقد يعمد القاتل بعد ذلك إلى دفن المقتول والصلاة عليه وينظر أشياعه والمقربون منه إلى هذا السيناريو الهزلي نظرتهم إلى واقعة من وقائع التقوى التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً!

ويغفل المتطرفون آيات كثيرة تدعو إلى السلام بزعم أنها عامة، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]، فالآية تشير إلى أن الله تعالى يدعو إلى السلام أولاً فهي المعبر الحقيقي للهداية لمن شاء، وبدون هذا السلام لن تتهيأ الأرضية الطيبة والصالحة للدعوة ودخول الناس في دين الله عن طواعية. وذكر الدكتور البوطي في محاضرته حول (دور الأديان في السلام العالمي): لا يمكن للخالق الرحيم أن يخلق البلبلة والاضطراب بين المؤمنين به بإيحاء إصدارات مختلفة ومتناقضة من التشريعات والمعتقدات، وإذا انتفى هذا كانت الدعوة إلى السلام طريقاً ممهداً للإيمان في كل الأديان. وهذا واضح من خلال قوله تعالى: ولقد كرمنا بني آدم، فالآية تشير إلى تكريم عام للبشرية وبالتالي فالدعوة إلى السلام دعوة عالمية.[3]

---

(1) جعل رزقي تحت ظل رمحي صحيح وهو قطعة من حديث مخرج في حجاب المرأة المسلمة عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله (ص): بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم. انظر الألباني، ناصر الدين: **تخريج أحاديث مشكلة الفقروكيف عالجها الإسلام**، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، ط1، 1405هـ. ج 1، ص 25.

(2) أبو داود: **سنن أبي داود**، كتاب الفتن والملاحم، بَابُ ذِكْرِ الْفِتَنِ وَدَلَائِلِهَا، ج 4، ص 96. (صححه الألباني).

(3) موقع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:
http://bouti.net/lectures.php?PHPSESSID=qdmfl6crflkrtnisohr5l9rta7

أحاديث فضل الجماعات المسلحة في بلاد الشام

ومن الأحاديث التي كثر الاستشهاد بها وصارت مرجعاً خطيراً للجماعات التكفيرية حديث عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا وفِي يَمَنِنَا. قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا وفِي يَمَنِنَا. قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ).[1]

ووجه الخطورة هو عملية الاستقطاب التي نراها اليوم للسذج والمغتر بهم من أجل الالتحاق بالجماعات المسلحة في بلاد الشام، إذ يجعلون المراد من الحديث الحال بها لا المحل نفسه، ومعلوم أن الأماكن تتفاضل كأفضلية مكة والمدينة وبيت المقدس وغيرها، ولكن الأفضلية المقصودة في بلاد الشام لا تعني أفضلية ملازمة لها طول الدهر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تعني أن كل من فيها أخيار فالخيرية تصدق على البعض دون الآخرين كما أن الشر في نجد لا يعني شراً ملازماً لها كل زمان ولا يعني كذلك أن جميع أهل نجد من الأشرار، وقرن الشيطان لا يعلم أحد متى يظهر ومتى يظهر أهله!

وعلى الرغم من أن علماء الإسلام أكدوا هذه المعاني بيد أن طوائف المغرر بهم ممن لا يقرأون ولا يسمعون إلا لمن يريدون توجهوا إلى بلاد الشام والتحقوا بركب المقاتلين هناك على أنهم خيرة الناس وفي خيرة الأماكن وانتهوا إلى قتال بعضهم بعضاً بعد أن فتكوا بالأبرياء من المسلمين، وكانت عمدتهم في هذا الإجرام المنهج الحديث السابق وحديث آخر من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تَزَالُ عِصابَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ علَى أبوابِ دِمَشْقَ ومَا حَوْلَهُ، وعلَى أبوابِ بيتِ المَقْدِسِ ومَا حَوْلَهُ، لا يَضُرُّهُم خِذْلانُ مَن خذَلهم، ظَاهِرِين علَى الحَقِّ إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ».[2]

---

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، كِتَابُ الجُمُعَةِ، أَبْوَابُ الاِسْتِسْقَاءِ، بَابُ مَا قِيلَ فِي الزَّلاَزِلِ وَالآيَاتِ، ج2، ص33. كذلك البخاري في: كِتَابُ الفِتَنِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الفِتْنَةُ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ»، ج9، ص54. وانظر البغوي: **شرح السنة للبغوي**: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ ذِكْرِ الشَّامِ، ج14، ص207.

(2) ابن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ج 14، ص 26. تحليق شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرين: « إسناده قوي، محمد بن عجلان روى له البخاري تعليقاً ومسلم في الشواهد، وهو قوي الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح»

وكان هذا الحديث من أقوى الأدلة التي استدلت بها الجماعات الجهادية المسلحة على عظم مكانتها وأنها على حق وصواب خاصة وأنها استقرت حول دمشق والغوطة بالتحديد رغبة في كسب المزيد من الأتباع وصناعة ضجة إعلانية عن أنفسهم، وفعلاً نجحوا في مآربهم وتدافع كثير من السذج إلى تلك الأماكن والتحقوا بالجماعات المسلحة هناك، ولم ينفعهم فيما بعد اكتشافهم حقيقة أمر تلك الجماعات وطبيعة الصراع السياسي بينها والإجرام الحاصل من هذه الحرب الأهلية. والحديث في نهاية الأمر يتحدث عن علامات الساعة التي لا يعلم أحد متى تظهر بالتحديد، ولكن الذين هرعوا إلى الشام وجماعات الشام احتقنت صدورهم بآمال قيام الساعة سريعاً وتحقق معنى الحديث فيهم!

فتنة الأحلاس وفضلها عند المتشددين

روى أبو داود في سننه: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ الْحِمْصِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَالِمٍ، حَدَّثَنِي الْعَلَاءُ بْنُ عُتْبَةَ، عَنْ عُمَيْرِ بْنِ هَانِئٍ الْعَنْسِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، فَذَكَرَ الْفِتَنَ فَأَكْثَرَ فِي ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الْأَحْلَاسِ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا فِتْنَةُ الْأَحْلَاسِ؟ قَالَ: « هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ، ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ، دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي، وَلَيْسَ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ، ثُمَّ يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ كَوَرِكٍ عَلَى ضِلَعٍ، ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ، لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً، فَإِذَا قِيلَ: انْقَضَتْ، تَمَادَتْ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ، فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ، وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ، فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ، مِنْ يَوْمِهِ، أَوْ مِنْ غَدِهِ.[1]

ومحل الشاهد في هذا الحديث قوله: وَمَا فِتْنَةُ الْأَحْلَاسِ؟ قَالَ: «هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ، وهذا الوصف ينطبق على الحروب الأهلية التي عصفت بسوريا وليبيا واليمن وغيرها من دول العالم الإسلامي، فالجماعات المتشددة والمسلحة في حالة هرب وحرب لا هم يهزمون فينتهي

(1) أبو داود: **سنن أبي داود:** كِتَاب الْفِتَنِ وَالْمَلَاحِمِ، بَابُ ذِكْرِ الْفِتَنِ وَدَلَائِلِهَا، ج4، ص94. وانظر ابن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ج10، ص309. وانظر الطبراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي: **مسند الشاميين**، امَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ مُسْنَدِ الْعَلَاءِ بْنِ عُتْبَةَ الْيَحْصَبِيِّ، لمحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط 1، 1984م، ج3، ص 401.

أمرهم ويرتاح منهم قومهم ولا هم ينتصرون فيفرحون بنصرهم، ويبررون فشلهم وهزائمهم بفتنة الأحلاس ولا أحد منهم يعلم كم هي الفترة الزمنية بين فتنة الأحلاس وفتنة السراء، بل إن إبهم الوقت بينهما في صالحهم فكلما طالت حروبهم وكثرت هزائمهم اشتد تعلقهم بالفتنة الأعظم حيث يظهر دعي آل البيت.

تأويل أحاديث النهي عن القتل

يعمد بارونات الحروب من القيادات الفتية إلى عملية تأويل ممنهجة للأحاديث التي تنهى عن قتل المسلمين، كقوله صلى الله عليه وسلم: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض»[1]، وكذلك قوله: «الفتنة من قبل المشرق».[2]

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، كِتَابُ العِلْمِ، بَابُ الإِنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ، ج1، ص 35. كذلك البخاري في: كتاب حجة الوداع، بَابُ حَجَّةِ الوَدَاعِ، ج5، ص 176. كذلك البخاري في: كتاب الأدب، بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الرَّجُلِ وَيْلَكَ، ج8، ص 39. كذلك البخاري في: كتاب الديات، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا}، ج9، ص 3. كذلك البخاري في: كِتَابُ الحج، بَابُ الخُطْبَةِ أَيَّامَ مِنًى، ج 2، ص 176. كذلك البخاري في: كتاب الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، ج9، ص 50. وانظر مسلم: **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، بَابُ «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.ج 1، ص 81. وانظر ابن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مُسْنَدُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ج 3، ص 477. كذلك ابن حنبل في: مُسْنَدُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ج9، ص 411. كذلك ابن حنبل في: وَمِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ج31، ص504. كذلك ابن حنبل في: أَوَّلُ مُسْنَدِ الْبَصْرِيِّينَ، حَدِيثُ أَبِي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ، ج34، ص48. وانظر ابن ماجه: **سنن ابن ماجه**، كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، ج2، ص1300. وانظر أبو داود: **سنن أبي داود**، كتاب السنة، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ، أَحَادِيثُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، ج4، ص221. وانظر الترمذي: **سنن الترمذي**، بَابُ مَا جَاءَ لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، ج4، ص56.وانظر **النسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني: **السنن الصغرى للنسائي**، كتاب تحريم الدم، تَحْرِيمُ الْقَتْلِ، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط 2، 1406هـ. ونظر ابن حبان: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ فَرْضِ الْإِيمَانِ، ذِكْرُ خَبَرٍ ثَالِثٍ يُصَرِّحُ بِالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، ج1، ص416.وانظر البيهقي: **السنن الكبرى**، كتاب الحج، بابُ الخُطبَةِ يَومَ النَّحرِ، وأنَّ يَومَ النَّحرِ يَومُ الحَجِّ الأكبرِ، ج10، ص149.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**، كتاب الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الفِتْنَةُ مِنْ قِبَلِ المَشْرِقِ»، ج6. ص 2597.

حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ، دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ»[1]

قال ابن حجر في شرح الحديث:

...كَذَا تَرْجَمَ بِلَفْظِ الْخَبَرِ وسَيَأْتِي شَرْحُهُ مُسْتَوْفًى فِي كِتَابِ الْفِتَنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَفِي الْمَتْنِ مِنَ الزِّيَادَةِ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَالْمُرَادُ بِالْفِئَتَيْنِ جَمَاعَةُ عَلِيٍّ وَجَمَاعَةُ مُعَاوِيَةَ وَالْمُرَادُ بِالدَّعْوَةِ الْإِسْلَامُ عَلَى الرَّاجِحِ وَقِيلَ الْمُرَادُ اعْتِقَادُ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ وَأَوْرَدَهُ هُنَا لِلْإِشَارَةِ إِلَى مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ كَمَا عِنْدَ الطَّبَرِيِّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ نَحْوُ حَدِيثِ الْبَابِ وَزَادَ فِي آخِرِهِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ مَرَقَتْ مَارِقَةٌ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ فَبِذَلِكَ تَظْهَرُ مُنَاسَبَتُهُ لِمَا قَبْلَهُ وَاللَّهُ أعلم.[2]

وقال ابن حجر أيضاً:

...حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ الْحَدِيثَ أَوْرَدَهُ مِنْ طَرِيقَيْنِ وَفِي الثَّانِيَةِ ذِكْرُ الدَّجَّالِينَ وَهُوَ حَدِيثٌ آخَرُ مُسْتَقِلٌّ مِنْ صَحِيفَةِ هَمَّامٍ وَقَدْ أَفْرَدَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ وَقَوْلُهُ فِئَتَانِ بِكَسْرِ الْفَاءِ بَعْدَهَا هَمْزَةٌ مَفْتُوحَةٌ تَثْنِيَةُ فِئَةٍ أَيْ جَمَاعَةٍ وَوَصَفَهُمَا فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى بِالْعِظَمِ أَيْ بِالْكَثْرَةِ وَالْمُرَادُ بِهِمَا مَنْ كَانَ مَعَ عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ لَمَّا تَحَارَبَا بِصِفِّينَ وَقَوْلُهُ دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ أَيْ دِينُهُمَا وَاحِدٌ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَانَ يَتَسَمَّى بِالْإِسْلَامِ أَوِ الْمُرَادُ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَانَ يَدَّعِي أَنَّهُ الْمُحِقُّ وَذَلِكَ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ إِذْ ذَاكَ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْضَلَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَلِأَنَّ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ بَايَعُوهُ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ وَتَخَلَّفَ عَنْ بَيْعَتِهِ مُعَاوِيَةُ فِي أَهْلِ الشَّامِ ثُمَّ خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَمَعَهُمَا عَائِشَةُ إِلَى الْعِرَاقِ فَدَعَوُا النَّاسَ إِلَى طَلَبِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ لِأَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمُ انْضَمُّوا إِلَى عَسْكَرِ عَلِيٍّ فَخَرَجَ عَلِيٌّ إِلَيْهِمْ فَرَاسَلُوهُ فِي ذَلِكَ فَأَبَى أَنْ يَدْفَعَهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ دَعْوَى مِنْ وَلِيِّ الدَّمِ وَثُبُوتِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ بَاشَرَهُ بِنَفْسِهِ وَكَانَ بَيْنَهُمْ مَا سَيَأْتِي بَسْطُهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ورحل عَلِيّ بالعساكر طَالِبًا الشَّامَ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي طَاعَتِهِ مُجِيبًا لَهُمْ عَنْ شُبَهِهِمْ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ بِمَا تَقَدَّمَ فَرَحَلَ مُعَاوِيَةُ

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، كِتَابُ اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ، باب علامات النبوة في الإسلام، ج 4، ص 200.
(2) العسقلاني: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج 12، ص 303.

بِأَهْلِ الشَّامِ فَالْتَقَوْا بِصِفّينَ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَ الْأَمْرُ بِمُعَاوِيَةَ وَمَنْ مَعَهُ عِنْدَ ظُهُورِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمْ إِلَى طَلَبِ التَّحْكِيمِ ثُمَّ رَجَعَ عَلِيٌّ إِلَى الْعِرَاقِ فَخَرَجَتْ عَلَيْهِ الْحَرُورِيَّةُ فَقَتَلَهُمْ بِالنَّهْرَوَانِ وَمَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ وَخَرَجَ ابْنُهُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بَعْدَهُ بِالْعَسَاكِرِ لِقِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ وَخَرَجَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَوَقَعَ بَيْنَهُمُ الصُّلْحُ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ الْآتِي فِي الْفِتَنِ إِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَيَأْتِي بَسْطُ جَمِيعِ ذَلِكَ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَدِيثُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَذْكُورُ.[1]

قال القسطلاني:

...(لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتيان) بفاء مكسورة ساكنة وبعد التحتية المفتوحة ألف فنون كذا في الفرع وأصله وعلى الهامش منهما صوابه فئتان بهمزة مفتوحة بعد الفاء ففوقية فألف تثنية فئة وهي الجماعة، والمراد كما في الفتح علي ومن معه ومعاوية ومن معه لما تحاربا بصفين (دعواهما واحدة) لأن كلاً منهما يتسمى بالإسلام أو يدعي أنه محق وقد كان علي الإمام والأفضل يومئذ بالاتفاق، وقد بايعه أهل الحل والعقد بعد عثمان ومخالفه مخطئ معذور بالاجتهاد والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه بل له أجر وللمصيب أجران.[2]

وقال القسطلاني أيضاً في ما يقصد بأن دعوتهما واحدة:

...كل واحدة منهما تدعو إلى الإسلام وتتأوّل كل فرقة أنها محقة، ويؤخذ منه الرد على الخوارج ومن معهم في تكفيرهم كلاً من الطائفتين (طائفة علي وطائفة معاوية)...[3]

قال ابن بطال:

هذا إخبار عن الغيب وحدوث الفتنة وقتال المسلمين بعضهم لبعض، ويحتمل أن يكون معنى قوله: (دعواهما واحدة):: دينهما واحد، ويحتمل أن يكون دعواهما واحدة في الحق عند أنفسهما واجتهادهما، ويقتل بعضهم بعضًا، وقد جاء في الكتاب والسنة الأمر بقتال

(1) المصدر السابق، ج 6، ص 616.

(2) القسطلاني: **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، ج 6، ص 56.

(3) المصدر السابق، ج 10، ص 205.

الفئة الباغية إذا تبين بغيها، قال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى...) [الحجرات: 9] الآية. قال ابن أبى زيد: قال من لقينا من العلماء: معنى ذلك: إذا بغت قبيلة فقاتلتها حمية وعصبية وفسقًا وفخرًا بالأنساب وغيرها من الثائرة؛ رغبة عن حكم الإسلام فعلى الإمام أن يفرق جماعتهم، فإن لم يقدر فليقاتل من تبين له أنه ظالم لصاحبه، وحلت دماؤهم حتى يقهروا، فإن تحققت الهزيمة عليهم وأيس من عودتهم فلا يقتل منهزمهم، ولا يجهز على جريحهم، وإن لم تستحق الهزيمة ولم يؤمن رجوعهم؛ فلا بأس أن يقتل منهزمهم وجريحهم ولا بأس أن يقتل الرجل في القتال معهم أخاه وقرابته وجده لأبيه وأمه، فأما الأب فلا.[1]

قال الإمام السيوطي في المقصود بالفئتين: هما جماعة علي، وجماعة معاوية[2]

أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشِيرُ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَيَقُولُ (ها، إِنَّ الفِتْنَةَ هٰهُنا، إن الفتنة هٰهُنا، مِنْ حيث يَطْلُعُ قَرْنُ الشيطان)[3]

(1) ابن بطال: **شرح صحيح البخارى لابن بطال**، ج 8، ص 593.

(2) السيوطي: **التوشيح شرح الجامع الصحيح**، ج 9، ص 4058.

(3) الألباني: التعليقات **الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه**، كتاب التاريخ، بَابُ إِخْبَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْحَوَادِثِ، ج9، ص 344.

Manar al islam
islamanar.com

الخاتمة:

كانت حقبة الاتحاد السوفييتي مرحلة من مراحل الاضطهاد الديني ليس فقط للإسلام وإنما لجميع الأديان والمعتقدات الروحية، وبانهيار هذا الاتحاد بدأت مرحلة جديدة نهضت فيها الأديان متعثرة تتناولها الأيادي الخارجية لفقدان المرجعيات الدينية سواء للإسلام أو المسيحي، وأدى هذا التدخل الخارجي إلى ظهور تكتلات مذهبية غريبة عن الإطار الثقافي العام للجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السابق وبمرور الوقت بدأت هذه التكتلات بالتوسع والانتشار لانشغال المؤسسات الدينية بتطوير نفسها والارتقاء إلى حالة من الاستقرار وإنشاء العلاقات السياسية وتهيئة الأجواء الدينية والعودة بها إلى الإطار التقليدي حيث ساد المذهبان الفقهيان الكبيران الحنفي والشافعي على العلاقات الدينية ودائرة الفتوى والنفوذ القضائي والتعليمي. فدخل الفكر الديني في مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في حرب باردة بين المدرسة الكلاسيكية للأحناف والشافعية من جهة والمدرسة السلفية التي اتخذت لها مرجعيات خارجية، واتسمت هذه الحرب بالحذر واتخاذ الشعارات الخاصة وترسيم الحدود الدينية. وساهم تشدد رجال الفكر التقليدي وعدم مقدرتهم على استيعاب الأوضاع الجديدة وفشلهم في جذب جيل الشباب إلى طرفهم في تصاعد التوتر فبدأت المرحلة الثانية بين الطرفين وهي مرحلة التوتر والتخندق تحسباً لمواجهات في المستقبل القريب. ولم تطل هذه المرحلة طويلاً حتى انتقل الطرفات إلى المرحلة الثالثة من مراحل التصعيد والمواجهة وإصدار الأحكام وفتاوى التكفير.

وكانت إحدى مشاكل التيار السلفي في حربه مع المذاهب التقليدية غياب نظام متكامل ومستقر للفتوى عندهم، والأسوأ من ذلك تصدر الشبان منهم للإفتاء ورد فتاوى علماء المذاهب متعللين بظاهر الحديث، وشكل ضعف معارفهم بفن التأويل وعدم تمكنهم من علم أصول الفقه مطعناً في مقدرتهم الإفتائية والأسوأ من هذا وذلك جهلهم بواقع المستفتي وظروف الواقعة. ومن الأحاديث التي كثر الاستشهاد بها وصارت مرجعاً خطيراً للجماعات التكفيرية حديث: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا وفِي يَمَنِنَا. قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا وفِي يَمَنِنَا. قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ)؛ ووجه الخطورة هو عملية الاستقطاب التي نراها اليوم للسذج والمغتر بهم من

أجل الالتحاق بالجماعات المسلحة في بلاد الشام، إذ يجعلون المراد من الحديث الحال بها لا المحل نفسه، ومعلوم أن الأماكن تتفاضل كأفضلية مكة والمدينة وبيت المقدس، ولكن أفضلية بلاد الشام لا تعني أفضلية ملازمة لها طول الدهر هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تعني أن كل من فيها أخيار فالخيرية تصدق على البعض دون الآخرين كما أن الشر في نجد لا يعني شراً ملازماً لها كل زمان ولا يعني كذلك أن جميع أهل نجد من الأشرار.

-وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَرَاهُمْ (الخوارج) شِرَارَ خَلْقِ اللَّهِ، وَقَالَ: إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ، فَجَعَلُوهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.(1)

ومما يؤيد ذلك أن الأحاديث واضحة جلية في الكف عن قتل من نطق الشهادتين، وبالرغم من ذلك رأينا أعضاء منتمين للتنظيم الإرهابي، في بعض الفيديوهات، يطلقون النار على الرجل بعدما ينطق الشهادتين، وقد عاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على أنه قتل كافرًا قال لا إله إلا الله لما رأى السيف على رقبته.

ففي الحديث المتفق عليه من حديث أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، يُحَدِّثُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلاً مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، ثم فَقَالَ: أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ[2]... وفي بعض الروايات: فكيف تفعل بلا إله إلا الله يوم القيامة.[3]

---

(1) ابن بطال: **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، كِتَاب اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ، باب قَتْلِ الْخَوَارِجِ وَالْمُلْحِدِينَ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، ج8، ص 583.

(2) البخاري: **صحيح البخاري**، كِتَابُ الدِّيَاتِ، بَابُ قَوْلِ اللَّه تَعَالَى: {وَمَنْ أَحْيَاهَا} [المائدة: 32]، ج94، ص 4.

(3) «حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ خِرَاشٍ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ أَنَّ خَالِدًا الأَثْبَجَ ابْنَ أَخِي صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، حَدَّثَ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيَّ بَعَثَ إِلَى عَسْعَسِ بْنِ سَلَامَةَ زَمَنَ فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: اجْمَعْ لِي نَفَرًا مِنْ إِخْوَانِكَ حَتَّى أُحَدِّثَهُمْ، فَبَعَثَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَ جُنْدَبٌ وَعَلَيْهِ بُرْنُسٌ أَصْفَرُ، فَقَالَ: تَحَدَّثُوا بِمَا كُنْتُمْ تَحَدَّثُونَ بِهِ حَتَّى دَارَ الْحَدِيثُ، فَلَمَّا دَارَ الْحَدِيثُ إِلَيْهِ حَسَرَ الْبُرْنُسَ عَنْ رَأْسِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَتَيْتُكُمْ وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّهُمُ الْتَقَوْا فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ، قَالَ: وَكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ

قائمة المصادر والمراجع:

-الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي: **الفقيه والمتفقه**، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي – السعودية، ط 2، 1421هـ.

-القرضاوي: **الفتوى بين الانضباط والتسيب**، دار الصحوة- القاهرة، 1985م.

-النووي، أبو زكريا محيي الدين: **روضة الطالبين**، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي محمد عوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، 2000م.

-الجوزية، ابن قيم محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، الناشر: دار الكتب الحديثة – القاهرة، 1979م.

-الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي: **الموافقات**، الناشر: دار المعرفة – بيروت، د.ط، د.ت.

-ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

-مجد أحمد مكي: **فتاوى مصطفى الزرقا**، الناشر: دار القلم – دمشق، ط1، 1999م.
الدريني، فتحي: **المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي**، الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع - دمشق، ط2، 1985م.

-ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد: **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، ط 2، د ت.

إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». انظر مسلم، **صحيح مسلم**، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ج1، ص97.

-داماد أفندي، شيخي زاده، عبد الرحمن بن محمد: **مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر**، الناشر: دار إحياء التراث العربي، د. ط. د. ت.

-القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي: **الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام**، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ط 2، 1416هـ.

- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي: صحيح البخاري، الناشر: دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ.

-مسلم، أبو الحسن ابن الحجاج القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت. د.ت.

-النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت: ط.2، 1392هـ.

-الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **المستصفى من علم الأصول**. تحقيق: محمد ثامر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط1. 2011م.

-ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط 2، 1414هـ.

- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط1، 1416هـ. ج5، ص535.

-البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي: **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط2، 1403هـ.

-البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني: **القضاء والقدر**، المحقق: محمد بن عبد الله آل عامر، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض، ط1، 1421هـ ج1، ص233.

-الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك: **سنن الترمذي**، المحقق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1998م.

-المروزي، أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي: **كتاب الفتن**، المحقق: سمير أمين الزهيري، الناشر: مكتبة التوحيد – القاهرة، ط 1، 1412هـ.

-الطبراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي: **المعجم الكبير**، المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط2.

-الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو: **السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها**، المحقق: د. رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة – الرياض، ط1، 1416هـ.

-الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري: **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1.

-الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي: **المعجم الأوسط**، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة.

-المقدم، محمد بن أحمد إسماعيل: **المهدي**، الناشر: دار ابن الجوزي – القاهرة، ط 10، 2008م.

-ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي: **النهاية في الفتن والملاحم**، المحقق: محمد أحمد عبد العزيز، الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان، د.ط، 1408هـ.

-أمين سعيد: **الثورة العربية الكبرى**، الناشر: مكتبة مدبولي، د.ط، د.ت.

-رضا، محمد رشيد: **مجلة المنار**، رسائل الطعن في الوهابية، الناشر: القاهرة، ابريل 1923م. مجلد 24.

-العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379هـ.

-القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - مصر، ط7، 1323هـ.

-السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **التوشيح شرح الجامع الصحيح**، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، ط1، 1419هـ.

-ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك: **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، الناشر: مكتبة الرشد -الرياض، ط2، 1423هـ.

-موقع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:

http://bouti.net/lectures.php?PHPSESSID=qdmfl6crflkrtnisohr5l9rta7

-الألباني، ناصر الدين: **تخريج أحاديث مشكلة الفقروكيف عالجها الإسلام**، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، ط 1، 1405هـ.

- الطبراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي: **مسند الشاميين**، لمحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط 1، 1984م.

-А.В.Проскурина: «Союз безбожников» на Псковщине: организация и деятельность в конце 1920-х – первой половине 1930-х гг». Научно-практический,

историко-краеведческий журнал «ПСКОВ» № 16 - 2002 г. ISBN 5-87854-199-8.

–Л.А. Королева, А.А. Королев: «Ислам, государство, общество в СССР во второй половине 1960-х – первой половине 1980-хгг. (поматериаламСреднегоПоволжья)»: моногр. Пенза, 2014. ПГУАС. ISBN 978.9-1105-9282-5-

–The Gulag and Soviet society in western Siberia, 19291953-. Wilson T. Bell. A thesis submitted in conformity with the requirements for the degree of Doctor of Philosophy Graduate Department of History University of Toronto. 2011.

–Л. И. Сосковец: «Антирелигиозные практики советского государства: цели, структура, этапы, средства». Журнал «Известия Томского политехнического университета», № 9 (35) 2013, часть 2, стр 179. ISSN 1997-292X

Manar al islam
islamanar.com

محتويات

تمهيد 5

الفصل الأول: أسس التأويل المعتدل للفتوى 9

الفصل الثاني: عوامل التطرف والظروف المهيئة لإنتاج الفتاوى الخطيرة في المستويين النظري والتطبيقي... 17

الفصل الثالث: تأويل أحاديث الفتن في القرون الأولى بين العصمة والظن 25

الأحاديث التي تأولها بعض الصحابة الكرام في القيادات الشابة 30

التأويلات المجلجلة 36

ابتسار جملة أو مقطع من بعض أحاديث الفتن والملاحم 36

الفصل الرابع: نماذج من التأويلات التعسفية لأحاديث صحيحة بغية تسييسها وتسويقها في ميدان التطرف 39

حديث مصلح القرن والانقلابات العسكرية 40

تعدد معاني المشرق والمغرب في أحاديث الفتن والملاحم 45

حديث مرج دابق 45

أحاديث الذبح وإباحة دم الخصم وإن كان مسلماً 47

أحاديث فضل الجماعات المسلحة في بلاد الشام 52

فتنة الأحلاس وفضلها عند المتشددين 53

تأويل أحاديث النهي عن القتل 54

الخاتمة: 59

قائمة المصادر والمراجع: 61

هذا الكتاب

يعنى هذا الكتاب ببيان ضوابط التأويل الوسطي في الفتوى ورصد منابع التطرف وعرض نماذج من التأويلات السياسية الفاسدة للأحاديث، ومن المسائل الحاسمة في الفتوى المنفلتة من الضوابط: إنكار الإجماع الذي هو الأصل الثالث في مصادر التشريع والفتوى، فالتنكر له يحل رقاب الفئات المتشددة من الإنصات لصوت العقل الجمعي وقرارات المجامع العلمية والفقهية ومراكز الإفتاء، ويمنحهم حرية واسعة في تشكيل عصابات صغيرة لها قادة يفتون ويأمرون وينهون فلا يحيد عن طاعتهم أحد من الأتباع، ويخيل إليهم أن صورة الطاعة والنظام المخيم على دوائرهم الصغيرة هي عين الحق والصواب، وأنهم الفئة القليلة الغالبة من الغرباء والشعث الذين إذا أقسموا على الله لأبر قسمهم!

وتتمة لإنكارهم الإجماع والعقل الجمعي للأمة أوّلوا قضية المتشابه في القرآن الكريم، فكل متشابه قالوا فيه برأيهم وجب الأخذ به ويتحول هذا المتشابه إلى محكم في عقائدهم وتشريعاتهم، وتتقلص دائرة المتشابه عندهم كلما اقتربت من اجتهادات زعاماتهم الشبابية البراغماتية والمؤقتة، فظاهر النص هو ما ظهر لقائد من قوادهم مهما صغرت عصابته، والمحكم هو ما حكمت العصابة به أنه الحق دون سواه، وتعدد الولاءات عندهم آفة لا تفضي إلى المواجهة الدموية، وكلما تباعدت المسافات بين عصائبهم خفت حدة تكفيرهم لبعضهم البعض وكلما تقاربت ظهر لهم كفر الآخر ظهور المحكم.